الدكتور مصطفى محمود

رائحة الدم

الحصـــــان

الخواجه ديمـترى تاجر كبـير .. رأسماله مليـون جنيه .. وهو يذهب كل يوم إلى البـورصة ليـبيع كل شىء .. حـتى ذمـته .. إذا وجد أنها صفقة رابحة ..

وهو عضو فى عـدة شركات .. ومتعـهد لعدة أصناف نادرة .. ومالك لمخازن غـنية بالبضائع الحـرة الخارجة عن التسـعيرة من الصوف الإنجليزى الفاخر إلى الحديد الخردة ..

وهو يقــول دائمـاً إنه غلبــان .. ومـديون .. لأنه يـتـوسع .. ويتوسـع.. باستمرار .

- أنا مسكين أعمل إيه .. عشــان أخسر فى بيع الخيش بقلب .. لازم أكسب فى بيع الحـديد .. التاجر منـنا غلبان يا حبـيبى طول عمره عايش على كف عفريت ..

وديمترى ليس له قلب ..

إن قلبه هو البورصة .. إذا ابتسمت له البورصة ابتسم بدوره للتجار الصغار وبسط لهم يده وخفض أسعاره .. وإذا كشرت له البورصة كشر بدوره للتجار الصغار وعضهم بنابه حتى أدماهم.

■ ■ ■

وقد طالعته البورصة اليوم بتكشيرة عريضة فأحس بأنه لا يستطيع أن يحب التجار كما تعود أن يحبهم كل يوم .. وشعر برغبة لا تقاوم فى رفع سعر الحديد الخردة الذى يملكه فى المخزن .. وخط فى نوتته عدة أرقام بالقلم الرصاص ..

وفعلت الأرقام فعلها .. وبلغ أثرها خواجة آخر صغير يتاجر فى نصف مليون جنيه فقط ..

وكشر الخواجه الصغير بدوره ورفع سعر الصفيح .. وقال وهو يلوح بذراعيه لكل مَنْ يقابله :

– أنا أعمل إيه .. أنا غلبان .. أنا نفلس إذا كنا نبيع بزى الأول شوف الحديد الخردة بكام .. شوف الحديد الألواح بكام ..

وانتقل الأثر من تاجر إلى تاجر حتى بلغ البك الذى يبنى عمارة على الكورنيش ..

وجد البك نفسه أمام فاتورة مفزعة ..

كمرات حديد .. أسياخ صلب .. أسمنت .. طوب .. مونة حجارة، وخام ، جبس ، صاج ..

ولم يجد مَنْ يصب عليه نقمته سوى السكان فرفع الإيجارات إلى الضعف .. وضغط على نفقات المقاولين .. ثم استرخى فى النهاية على الكرسى الوثير تحت الأباجورة فى منزله العامر وتمطى وطرقع مفاصله وقال فى تعاسة :

– أعمل إيه .. أنا غلبان .. شوف الطوب بكام .. شوف الأرض بكام .. شوف شوال الزلط بكام .. شوف الجير بكام ..

■ ■ ■

وكان آخر مَنْ بلغته الدوامة هو عم بيومى العربجى الذى خرج بعربته الكارو سارحاً على باب الله فصادفته شيلة مغرية هى حمولة مواسير ينقلها من القلعة إلى شارع الكورنيش حيث تقوم عمارة البك بأدوارها العشرة ..

وفرك عم بيومى يديه بحلاوة الاستفتاح وبدأت المساومة .. وكانت مساومة قاسية ..

ولم يدرك بيومى أن عليه أن يدفع كل فروق الأسعار التى ظلت

تنتقل من تاجر إلى تاجر ..

ولم يرهق ذهنه بالتفكير فقد كان عاطلا وفى حاجة إلى قرش فقبل الشيلة بنصف أجرها .. وبدأ يصف المواسير ماسورة ماسورة على العربة .. ثم نظر إليها بعد أن اكتملت وطرقع بكرباجه .. وكان يشعر أنه مغبون وأنه مسكين جداً .. جداً .. ولم يجد أمامه سوى الحصان فهوى بكرباجه على جسده وهو يصرخ..

- هيه .. يالله .. هم .. هم .. هيه .

وجذب الحصان نفسه إلى الأمام ، ثم تقهقر فى ضعف وتخاذل ، وكان الحصان هزيلا متقطع الأنفاس ولم يكن قد أكل فى ذلك اليوم إلا حفانا صغيراً من الشعير هو كل ما يملك عم بيومى من طعام .. ولسعه بيومى لسعة أخرى على أضلاعه .. وكان الكرباج هذه المرة حامياً فألقى الحصان بنفسه إلى الأمام وراح يخلع سيقانه خلعا من الأرض وهو يلهث ..

وتزحزح خطوتين .. ثم ثلاث خطوات .. ثم بدأ يسير وقد تدلى لسانه .. وما كاد يقطع مائة متر حتى فقد توازنه وسقط على الأرض كومة من اللحم .. وما لبث أن أسلم الروح ..

وتجمع حوله المارة القليلون فى هذا الوقت المبكر من الصباح

وكـانوا كلـهم يشـتـمـون العـــربجي .. وكـان العــربجــي يبـكي كالطفـل .. أما الحصــان الميت فكان مطروحاً علــى الأرض وعيناه إلى الســماء .

لقد حــمل المجتـمع كله على ظهره .. بما فــيه من تجـار وملاك وعمال .. مائة متر إلى الأمــام .. ثم سقط تحت ثقله .. وفقد حياته دون أن يقدم بها فاتورة حساب ..

الشىء المجهـول

يستـوى أى وقت وأى يوم وأى فصل من فصـول العام ، وأى سنة من سنى العمر .. فالكل نسخ متشابهة لأصل واحد ولا شىء غير التكرار . التكرار الممل .. فحياته تسير .. بلا جديد .. الغد فيها مثل الأمس والحاضر كـالماضى .. لا عمق فى أحزانه ولا عنف فى مـسـراته .. لا ضـحكات ولا دمـوع .. وإنما بسـمات صـفـراء .. وأشجان عابرة لا تهز القلب ..

وإنه ليستطيع أن يتنبأ بما سيحـدث كما تتنبأ المراصد بحركات النجوم .. لأن تتابع حـياته أصبح آلياً يحكمه قانـون جامد صارم لا روح فيه ..

هو سيفتح باب العربة القديمة ويتهيأ للنزول .. فينبح الكلب .. ويقف البواب العـجوز يتثـاءب ويؤدى التعظيم .. هو سـيطأ الممر

المرصوف بالحصى ويصعد الدرجات الخمس ويضغط على الجرس .. فيطل الخادم الأصلع الذى يؤدى نفس الدور من عشرين سنة .. ليفتح الباب .. ويجرى خلفه وهو يعرج .. ويضىء نور غرفة النوم .. ويمسك قطع الأثاث .. واحدة بعد أخرى بنفس الترتيب فهو يبدأ بالشماعة ثم بالكرسى ثم بالدولاب .. ثم يقف بعد هذا كالتمثال يتلقى المعطف والجاكتة وباقى الثياب قطعة قطعة.. يعلقها على المشجب ، ثم يفتح فمه قائلا نفس الكلمات ..

– العشاء جاهز يا سيدى .. هل تريد شيئاً ؟

فيجيب نفس الإجابة :

– لا .. وشكراً ..

وتمر عشر دقائق بالضبط وتتيقظ زوجته فتتمطى وتتثاءب وتجلس .. ثم تقف فى روب النوم .. لتقول الجملة التى لا تتغير :

– لقد تأخرت كثيراً هذه الليلة .. إن هذا السهر يؤثر فى صحتك ..

فيقول فى جفاف كالعادة :

– إن صحتى ملكى .. وأنا حر أفعل بها ما أشاء وقد نبهت ألف مرة بألا يعود الكلام إلى هذا الموضوع .

ويحـاول أن يغضب فى صـدق وحرارة .. ولكن هذه الحـرارة تنطفىء ، وتتحول إلى مجرد ضجـر ، وتخونه الكلمات فيسكت .. ويسرح الطرف إلى النافـذة المفتوحـة حيث الفضاء وحـيث المئذنة المضيئة وخـفقات الطاحون تطفو وتغرق فى نقنـقة الضفادع إلى الصورة المعلقـة بالجدار إلى وجه زوجتـه الفاتن .. فتعجـز الفتنة ويعجز الجـمال ويعجز الشعر الأثيث الفـاحم والعينان السوداوان والوجه المستطيل والقوام الشـمعى .. ويعجز كل هذا عن أن يحرك فـيـه سـاكناً .. وكأنما الـعواطف قـد ماتت واندثرت فى مـقبـرة العادة ..

أين يذهب ضحك الطفـولة الذى كان يجلجل كالجـرس الفضى وقد خرج من حبة القلب فاهتز له الجسم كله .. وأين ذهبت أحلام الصـبا .. التى كـانت تبعث الـدمع يتلألأ فى العـين .. أين رجفـة الأمل.. ورعـشـة الخـوف .. وتوثب الإرادة .. أين الـلحظات ؟ كل لحظة منها جديدة مـفعمة بالشعور طافحـة بالحياة .. أين الحب .. أين السعادة .. أين الحزن العظيم .. أين الفرح العظيم ؟

إنه يملك ما يحـلم به الناس .. يملك امرأة جمـيلة وفيـلا وعربة وثقافة ومالا وفراغاً .. وكل شىء .. فما باله لا يحس بشىء ..

وتجثـم عليه هذه الخـواطر كالكابوس .. وفى خـلالها يسـمع زوجته وهى تروح وتجىء قائلة :

- لقد سخنت الحساء يا عزيزى .. وجهزت المائدة ..

فتغثى نفسه دون أن يرى هذا الحساء .. أو يسأل أهو حساء السمك أو حساء اللحم أو حساء الخضار .. ويتقلص حلقه .. وقد تهيأ ليرفض أى شىء .. حتى الماء القراح .

يجب أن يكون فى حياته شىء جديد .. يجب أن يفتح مصراعى هذه الوحدة كل أسبوع ليستقبل عدداً من أصدقائه فى ليلة صاخبة تمتلىء بالطعام والشراب والإشاعات والحديث والثرثرة .. فهذا الحساء الذى يتذوقه لسان واحد شىء آخر غير نفس الحساء الذى تتذوقه عشرات الألسن ..

■ ■ ■

أكانت فكرة صائبة ..

لقد فتح مصراعيه ليلة الخميس من كل أسبوع لأصدقائه يأكل ويشرب ويثرثر معهم ، ولكنه ازداد تأكيداً من فشله .. وقد رأى نفس الملال ونفس الضجر يطل من خلف العيون الآخرى .. فهى تضحك .. وتبتسم .. وتصغى .. وتتحمس .. ولكن الافتعال يطل من خلفها جميعاً ، فالضحكة لا تلبث أن تخفت وتحتبس فى حلق صاحبها ، وتحل محلها حيرة تستدير الشفقة .. والحماسة

تنطفىء وتخبو وقد وجدت أنها لم تجتذب الأسماع .. وشيطان التكرار يطبع كل طرافة بطابع العادية ، ويجعل من كل شخص آلة لها قوانين تحكمها .. فالذى يبكر بالحضور .. يبكر دائماً بالحضور والذى يتأخر .. يتأخر على طول الخط .. حتى ليستطيع أن يتنبأ بالاسم من دقة الجرس .. فإذا فتح الباب فلكل شخص مشية لا يغيرها ، وتحية لا يبدلها .. فالذى يعانق ويقبل يفقد كل طرافته حينما يعاود فى المرة التالية نفس القبل والعناق والأشواق. فإذا جلس .. فليس جديداً أن يضع ساقاً على ساق ، أو يطرق المائدة بأنامله .. أو يتحسس شهره .. أو يتطلع فى المرآة .. فكلها أفعال آلية خالية من الجدة والاختراع .. والأحاديث نفس الأحاديث والإشاعات نفس الإشاعات .. الأفلام السخيفة .. والجو .. والزكام.. والأطفال .. والحرب .. والفضائح .. والوفيات.. والأزمات .. ثم تثقل العيون وتثقل الألسن .. وتنتهى القصة .. لتعاد بشكل آخر .. وبألسن أخرى .. وعناوين أخرى وتزداد العيون ثقلاً .. والألسن بلادة .. والأفواه تثاؤباً.. ثم تهب الجماعة.. تبسط أكفها بالسلام واحداً بعد آخر .. ويخلو البيت إلا من سحب الدخان الكثيف ، ورائحة الكئوس والزهور والطعام .. وكابوس الملل الرهيب ..

إن بضعة أشخاص يدخلون ويخرجون لم يفعلوا أكثر من أن يكونوا عدة مرايا تنعكس عليها التفاهة والسأم والتكرار الممل ..

إن حياته ينقصها شيء .. شيء لا يعرفه .. شيء كالروح فى الجسد ، فما هو ؟

إنه يقرأ الكتب ويسمع الموسيقى ويخرج إلى الحقول .. ويرتاد المسارح .. ويجرى ساعتين فى الصباح حتى يلهث .. ويصلى أحياناً .. ولكنه لا يصل إلى هذه الروح أبداً .. هذه الروح التى ترسل البسمة مشرقة على الشفتين ، وتبعث حب الحياة يتسلل إلى كل جزء من الجسد حتى أطراف الأنامل ..

إن أشعة الشمس تدق قلبه المغلق ، فلا تجد منفذاً إلى روحه التى ترتجف من البرد ، فهو يعيش فى عزلة .. فى برج .. فى قلعة مسورة لا تصل إليها أصوات الحياة .

إن فى الوردة التى تفتح أكمامها لشعاع الفجر وتدير ثغرها نحو مشرق الشمس .. شيئاً لا يوجد فيه .. فهى تتجاوب مع وجودها الصغير ، فترد ابتسامته بابتسامة ، وإشراقته بإشراقة ، وحركته بإيماءة رشيقة جميلة .. أما هو فلا يتجاوب مع شيء .. وقد فقد صلته بكل الأشياء ، وبدأ يشك فى كل القيم وكل الموجودات .. فالحياة فى نظره لا معنى لها .. لأنها مجموعة مقدرات وأحداث حتمية لا أثر فيها للحرية ، وإنما هى تحدث هكذا لأنها لابد أن تحدث هكذا .. ولا أثر لإرادة الإنسان فيها ، ومن ثم

لا حكمة لوجوده ولا معنى لفرحه وحزنه وضحكه وبكائه .. ولا معنى لأن يلد وينسل ويتكاثر ليكرر حياة واحدة ونهاية واحدة .

وهو مع هذا يشك فى شكه ، ولا يخرج من مأساته بغير التخبط وبكابوس من الملل يجثم عليه ليسحقه ويسحق آراءه..

لا بد من عمل شىء .. إن الضجر يقتله ..

■ ■ ■

إنها لتجربة .. أن يلعب الإنسان القمار .. أن يعيش فى تساؤل وتوقع وترقب وأمل ويأس ومفاجآت لا تنتهى .. حيث لا شىء يتكرر أبداً ..

إنها لتجربة تلهث فيها الأنفاس ..

■ ■ ■

وهكذا بدأ يقتل الضجر ويقتل نفسه فى وقت واحد ..

فى غرفة مغلقة تموج بالدخان .. كان يجلس إلى جوار رجل ذى وجه مضلع مستطيل وأمامهما رجل هزيل ضامر .. والورق يدور .. وخيوط الدخان تتصاعد من أطراف الأصابع . والمال يتراكم ويختفى .. والحظ معلق على كلمات مقتضبة على أطراف

الألسن .. لا أحد يستطيع أن يتنبأ بمصيره .. ولا أن تجتهد إلا فى حدود .. ولا أن يضع قانوناً للكسب ولا قانوناً للخسارة .. إنما هى الخبط العشواء والقوى المجهولة .. التى تختصر الماضى والحاضر والمستقبل فى ورقات .. وهذه الذبالات الإنسانية تترقب يشعلها فضول لا يحد ..

وتشق الصمت كلمات قليلة .. وينقر الرجل ذو الوجه المضلع على المائدة .. ويعود الصمت يغلف الجميع إلا من حفيف الورق وهو يدور .. والمال وهو يذهب .. والمال وهو يجىء ..

■ ■ ■

إنها لتحربة ..

لقد قتل الملل حقاً ولكن بسلاح من العجز والخيبة . وبثمن باهظ فهو يشحن كل لحظة بجزء من ثروته وعقله وصحته ليجعل منها فى النهاية لحظة جديرة باهتمامه .. كمَنْ يلقى بثيابه وحافظة نقوده وعائلته فى البحر ليصبح النظر إلى البحر بعد هذا مثيراً لا يبعث على الملل ..

لقد أحس بالإفلاس .. أحس بأنه يستجدى الفرح ويستجدى الحزن .. ويفتعل المفاجآت .. ويزيف العواطف .. فأسدل هذا

الوعى الجديد علـى التجربة التى نجـحت ستاراً شـفيـفاً من القلق والشك جعل يستحيل مع الأيام إلى جدار صفيق من اليأس ..

ومع هذا فقـد ظل يقامر ويحتـمى بالعناد والإصرار هارباً من قبضة اليأس التى عرفت طريقها إلى قلبه فجعلت منه قلباً ثقيلاً .. لا يفرح بالكسب ولا يحـزن للخسارة .. ولا يهـتز أمام المفـاجآت ولا يعبأ بتقلب الحظوظ .. قلباً ميتاً بليداً .. راكد الدم ..

لقد فشلت التجربة أخيراً ومات الفضول وبليت الجدة وتحولت البدعة إلى عادة ..

إن لعب الورق لا يعوض الإنسان عن الحـياة .. وليس ارتجاف القلب أمام الكسب والخسارة هو سعادة الوجود التى كان يطلبها.. فإن الطفل ليـرتجف من الفرح ويهتز بدنه كله إذا عـثر على بكرة يدحرجها على الأرض .. بكرة صغيرة فارغة .

إن اللغز مـا زال باقياً والمشكلة على حـالها .. ما زالت حـياته ينقصها شىء يجهله .. شىء غير لعب الورق ..

■ ■ ■

وأوقف عـربته الـقديمـة .. وتهـيأ للنـزول ، فنبح الكلب وهب البـواب العـجـوز يتـثـاءب ويؤدى التـعظيم .. وسـار على الممـر

المرصوف بالحصى وصعد الدرجات الخمس وضغط على الجرس، فأطل الخادم الأصلع .. نفس الخادم الأصلع .. ليفتح الباب ويضىء نور غرفة النوم .. ويمسح الأثاث قطعة قطعة بنفس الترتيب .. ويقول .. إن العشاء جاهز .. ثم تيقظت زوجته لتقول كالعادة .. إنه تأخر فى السهر وإنه يؤذى صحته ..

وكاد يفقد أعصابه هذه المرة ولم تفهم زوجته لصياحه معنى ؛ فهى لم ترتكب جريمة .. أما هو فكان يود لو أنها ارتكبت جريمة حتى تتغير اللعنة التى كتبت عليه كل يوم وذهب إلى المرآة ليقف طويلا .. يتأمل نفسه ..

إن أظافره طويلة .. وشعره ليس حليقاً كما يجب .. وهو يحس بأن حذاءه ضيق .. وصدره ضيق .. وإن الغرفة كلها أضيق من ثقب إبرة .. والعالم الفسيح الأرجاء قبر مظلم رطب يخنق الأنفاس ..

وسمع ضحكة الطباخ تطوف بأرجاء البيت وسمعه يقول لزوجته :

– لقد كنت أبحث عن علبة الثقاب ثم اكتشفت أخيراً أنها فى يدى .. أليس هذا غريباً ؟

وسمع زوجته تشاركه فى ضحكة بربرية وتقول إنه

« مسطول » وإنه سيأتى عليه يوم ينسى فيه أولاده ..

وعجب لهؤلاء السذج كيف يضحكون على مثل هذه التفاهات وسرح الطرف فى الظلام عبر النافذة إلى المئذنة البعيدة والحقول والضفاضع والطاحون .. وما لبث أن ارتدى معطفه وخرج .. هذه المرة بدون عربة .. وإنما على قدميه .. ليضرب فى الظلام الدامس.. لا ينوى على شىء ..

ولعله قد قطع عدة أميال .. وعبر عدة أحياء دون أن يدرى فقد كان مستغرقاً فى أعماق نفسه .. يتوزعه شتيت من الأفكار والخواطر فلا يدرى أين تذهب قدماه وماذا يدور حوله . ولو سئل فيم يفكر .. لأجاب .. لا فى شىء .. فلم يكن فى رأسه شىء.. بالذات .. وإنما تهافت لصور وأحاسيس غير مترابطة تترك خلفها شعوراً ملحاً بالفراغ ..

وأفاق هنيهة ليجد نفسه فى شارع تستعرضه عدة فوانيس حمراء .. وأكوام من التراب .. وخنادق .. وآلات للحفر .. ومواسير.. وحبال .. وبضعة من الآدميين مكومين حول نار موقدة .. يثرثرون ويقضمون قطعاً من الخبز .. يشربون بعدها رشفات من الشاى الأسود ..

وخطر له أن يصغى إلى هذه الثرثرة فترة من الوقت .. فاستند

إلى جذع شجرة وأشعل لفافة من التبغ .. واستغرق يتأمل هؤلاء الناس من خلال حلقات الدخان التى أحاطتهم كالإطار ..

كان المتكلم رجلا ذا سن واحدة فى فمه وشارب كثيف ووجه بارز العظام ملىء بالتجاعيد .. وكان يوجه الكلام إلى شاب نحيل فى مواجهته .. بينما راح الباقون يستمعون وهم يقضمون الخبز ويرشفون الشاى ..

قال وهو يلوح بقبضته فى الهواء :

- أقسم بالله العظيم يا شيخ .. لو استطعت أن أسرق لسرقت . إن الواحد منا يجب أن يعيش .

- صلى على النبى يا راجل .. صلى على النبى .. إنك تعيش فى أمان الله وتأكل وتشرب .. دون أن تحتاج إلى السرقة . ما هذا الكلام ؟

- إنى آكل هذا صحيح .. والكلب يأكل .. وكل مخلوق فى الأرض له رزق .. ولكنى آدمى ليست حياتى كلها خبزاً وإداما .. إن لى ابناً .. ولا أريد أن يحفر ابنى الأرض .. وينزح مثلى المجارى ويدك الأسفلت .. وأن تذهب سبعون سنة من العذاب والشقاء بلا كفارة .. إن الحياة لا طعم لها بلا أمل .. أريد أن أعلم

أن فأسي هيأت الأرض لحياة أصلح .. وأن عرقي لم يذهب عبثا .. أريد أن يكون ابني متعلما .. يقرأ ويكتب ولا يجلس مثلي على الأرض .. أهذا الأمل حرام على أمثالي ؟

وعاد يلوح بيده وقد اشتعلت عيناه بحماسة متأججة وتوثبت فيهما الإرادة ..

– ومن قال إنه حرام ؟ إن الأمل في رحمة الله واجب .. وكلنا نعيش على الأمل .. وستحقق آمالنا .. ويعيش أولادنا كما نريد أن يعيشوا .

– كيف يحدث هذا ؟ إن المعجزات لا تحدث في هذا الزمان . إن العمر محدود يا عمي .. وقد شخت وانحنى ظهري .. وأصبحت أيامي على الأرض محدودة .. وستتكرر المأساة .. ويعيش أولادي وأحفادي كما عشت .

وأطرق صامتاً برهة وقد وضع رأسه بين كفيه ، ثم رفع عينيه فجأة وأمسك بكتفي محدثه وراح يهزه في عنف ، وهو يغمغم في خشونة وقد تلألأت في عينيه الدموع :

– أريد أن أعيش ، أريد أن أعيش عشر سنوات أخرى .. عشر سنوات أربي فيها أولادي .. أتفهم ؟

– ستعيش يا عمى .. ستعيش حتى تدفننا جميعاً .

– أدفنكم .. إن هذا خبر سار حقاً .

ولقد سره هذا الخبر حقاً .. يدفنهم جميعاً بيديه .. فقد راح يحملق فى الفراغ وقد أشرقت عيناه بأمل لا يحد .. بينما تصايحت عدة أصوات فى وقت واحد :

– أعوذ بالله .

وانحنت الأفوه على أكواب الشاى .. بعضها يبتسم وبعضها يضحك .. وبعضها يحلم .. وفى ناحية منعزلة جلس اثنان يتساران حديثاً خفيفاً ما لبث أن ارتفع حتى أصبح صخباً وضجيجاً ثم تحول إلى معركة .. وقد أمسك أحدهما بتلابيب الآخر وأخذ يصيح :

العشرة قروش يا بنى آدم .. العشرة قروش ..

وهب عدة رجال فى وقت واحد .. وسمعت عدة صيحات وكلمات مختلطة .

– صبرك يا خليل .. اتهدوا بالله يا جماعة .. اتلم أنت وهو .. اخرس .. اللهم اخزيك يا شيطان .. بقى ده ذنبى اللى سلفتك .. بقى أنا أبويا كلب برده .. الله يسامحك .. صحيح ما ينوب المخلص.. ياجدع عيب ده احنا أخوات وما يصحش كده .. يا خليل

ارجع . بقه مفيش حد مالى عنيك يا أخى .. أوع إيدك ..

ولكن يده الباغية كانت قد انقضت تلطم وجه غريمه وتغور فيها بأظافرها ، فتترك ندبة طويلة يسيل منها الدم .

وكثر الصياح والتدافع بالأيدى .. وتوالت اللطمات ، ثم بدأ الهدوء يعود وتفرقت كتلة اللحم إلى عدة أفراد يصلح كل منهم ثيابه ويشتم .. ويلعن ويبصق على الأرض .. وأخذ العجوز ذو السن الواحدة يقول فى عتب :

– بقى دى آخر العشرة يا جماعة .. بقه كده يا خليل تضرب أخوك .

ولم يكن لدى خليل شىء يقوله فجلس وحده على كومة من الأتربة يحملق فى النار وقد أكلت الخشب وأحالته إلى رماد تتوهج فيه خيوط قليلة حمراء .. وظل العجوز يتكلم .. وظل كل واحد يتكلم .. وظل خليل صامتاً لا يبدو عليه أنه يسمع شيئاً سوى طقطقة النار .. ومر وقت ليس بالقصير .. كانت سحنته فى أثنائه تتبدل وسماته تتراخى .. ثم شوهد أخيراً وهو يحل منديله المتسخ من حول رقبته ويذهب إلى غريمه فى صمت ، ويشرع فى تضميد جرحه .

وكان الاثنان يبكيان ..

■ ■ ■

وأشعل الرجل المستند إلى جزع الشجـرة لفافة التبغ العاشرة ، وراح يحـملق فى النار هو الآخـر .. ويصغى إليـهـا وهى تطقطق وتخبـو، ومن حولها تتـجمع هذه الوجوه النحـاسية كأنهـا وجوه لمخلوقات من عالم آخر يراها لأول مرة .

وكان يخـتلس النظر إلى الاثنين اللذين كانا منذ برهة يقتـتلان وقد أحـاط كل منهمـا عنق الآخر .. وانحـنى ظهرهمـا فى تعبـير صامت لضعف الإنسان وذلتـه ، وقد لمع وهج النار النحاسى على صفحتى وجهيهما وتلألأت عليهما حبات الدموع .

وخـيل إليـه أنه يرى للمـرة الأولى صـورة صـادقـة لأحـزان الإنسان ..

وحينما استدار ليعود أدراجه لم يستطع أن يمحو هذه الصورة التى فـتحت أبـواب قلبه المغلق فـتـدفق منه طوفـان من المشاعـر الحبيسة .

لم يسـتطع أن يمنع قلبه مـن أن يحزن ، ولم يسـتطع أن يمنع روحـه من أن ترتجف فى سـجنهـا وهى تتطلع إلى هذه الوجـوه الجافية الخشنة ، وهى تـقطع عليه الطريق وتخرج عليه من طوايا الظلام وفـى يد كل منهـا فـانوس يسـبح فى هالة مـن الوهج النحاسى .

وحينما بلـغ بيته لم يلحظ أن البواب قـد وقف يتثاءب ويؤدى التـعظـيم ، ولم يسـمع نبـاح الكلب ولا صلصلـة الحـصى تحت قدميـه.. ولم ير الخادم الأصلع .. وهو يجيب دقة الجـرس .. فقد كانت أذناه ترعـدان بهذا الصوت المـتحشـرج الذى ينساب من فم رجل عجوز ذى سن واحدة :

– إن لى ابناً ولا أريـد أن يحـفـر ابنى الأرض وينزع مـثلى المجارى ويدك الأسـفلت ويحمل القطران وأن تذهب سبـعون سنة من العذاب والشـقاء بلا كفـارة .. إن الحياة لا طـعم لها بلا أمل ، أريد أن أعلم أن فأسى هـيأت الأرض لحيـاة أصلح وأن عرقى لم يذهب عبـثاً . أريد أن يكون ابنى متعلمـاً يقرأ أو يكتب ولا يجلس مـثلى على الأرض أريد أن أعـيش عـشـر سنوات أخرى ، عـشـر سنوات أربى فيها أولادى ..

أريد أن أعيش .. لقد كان الرجل يطلب الحـياة كان يطلب عشر سنوات من الفقر والجوع والتعاسـة والخرق القديمة .. لأن الحياة ليست هى الحرير والخمر والنساء .. وإنما سر الحياة هو أن تبذل فى سبيل غاية .

وهذا هو الشىء المجهول الذى ينقص حياته .

أنشودة الـدم

الجندى الإنجليزى الذى يقف حارساً على مقابر العلمين شخصية غريبة ..

والذين يمرون بعرباتهم على مقابر العلمين فى طريقهم إلى مرسى مطروح يعرفون ذلك الوجه الشاحب الذى يطل عليهم ويتفحصهم واحداً واحداً بابتسامته البلهاء الغريبة .

وفى العادة يتقدم الحارس المصرى لينقذهم من تلك النظرات الفضولية متعذراً بإشارة معناها .. هذا رجل مسكين فى عقله .. اعذروه ..

كنت أفكر فى الرجل حينما قررت المبيت فى إحدى الغرف الأربع الموجودة بالاستراحة فى تلك الليلة البعيدة من أكتوبر . وكان همى الأول أن أقضى المساء مع ذلك الإنجليزى ليفتنانت

جون ليتل كما يسمى نفسه ..

وفى الكشك الصغير من الخشب المطل على البحر ، وعلى الدكة المغطاة ببطانية من الصوف ، جلسنا نتحدث وأخرج جون زجاجة السكوتش التى لا تفارق جيبه وصب لى كأساً .. وقال وهو يتطلع إلى الأمواج العالية ..

– أنت لا شك تعجب لأنى اخترت الإقامة فى هذا المكان الموحش فى الوقت الذى كان باستطاعتى فيه أن ألحق بزملائى فى إنجلترا .

– هذا فعلا اختيار غريب ..

أما بالنسبة لى فإنه ليس غريباً على الإطلاق ، فليس لى زملاء هناك فى إنجلترا وإنما كل زملائى وأحبائى هنا فى هذه المقابر : هنا حياتى ..

وأشار إلى آلاف الصلبان الخشبية التى تغطى الرمال كنباتات قصيرة جرباء ..

وعاد يشير بأصبع مرتجفة ..

– وهنا يرقد شارل ..

وصمت لحظة ثم أردف ..

أنت لا تعـرف شـارل .. ولو أنك عـرفته كـمـا عرفـتـه أنا لما استطعت أن تفارقه حياً ولا ميتاً ..

إن الحرب شيء فظيع ..

إنك لا تستـطيع أن تتصور كـيف مرت تلك الليلة ، ليـلة قررنا الهجوم الكبير فى العلمين ..

إن قصف المدافع ونـيران القنابل الحارقـة .. وأزيز الطائرات .. ودمدمة الـرشاشات وهزيم الدبابات . ما زالت تصك أذنى كـأنها تحدث حولى اللحظة ولم تمر عليها فى كل تلك السنين ..

ليلتها كان كل هؤلاء (وأشار إلى ساكنى المقابر) يملأون تلك الساحـة الخلاء بالحركـة والحياة . وكـانت هذه السمـاء مضيـئة بآلاف القناديل . ولولا صـرخـات الموت هنا وهناك لخـيل للواقف هنا أنه فى محفل سماوى رائع ، إن منظر الدم يسكر . أقول منظر الدم يسكر . ولا يعرف هذه الحقيقة إلا مَنْ جربها ..

إنك تخـاف من الحرب وتـرتجف من أهوالها طالمـا كنت بعيـداً عنهـا تـسـمع أخـبـارهـا على ألسنة الرواة وترى صـورها فى الصحـف، أما إذا عشت فى مـعمـعاتهـا . ورأيت الدم يتفجر من حـولك . فإن رأسك تدور . وحلقك يـجف ، وتتحـول إلى حيـوان مفترس لا يعرف .. حيوان عطشان للدم ..

إن أسنانك تصطك الآن مجرد تـصور السونكى فى يدك وأنت تدفعـه فى قلب رجل حى فتستـل منه الحياة ، أنت تقشـعر وأنت تسمع هذا الكلام الآن ، ولكن ساعتها سوف تجد نفسك تطعن فى ضراوة ذئب ، وكـأنك أصبـحت شخصـاً آخر بل صنفـاً آخر من الكائنات لا تمت للبشرية بسبب .

إن مهنة القتل تنبت مخالب فى تلك الأيدى الناعمة .

وفى أتون القتال لا تعود هناك نجاة من الموت إلا بالموت .

أقتل .. أقتل .. أقتل فى حماس وهمة إذا أردت أن تنتهى من كل شـىء . يالها من نشوة بشعة ..

كنا ساعتها نحارب أنا وشارل فى مركز أمامى فى الجبهة .

وكان علينا أن نتقدم ببطء تحت ستار من قنابل المدفعية ..

وكنا نزحـف على بطوننـا كـزوج من الأفــاعى . وبيـن لحظة وأخرى نرفع رءوسنا لنلقى بقنبلة يدوية ، ثم نعود ندفن رءوسنا فى الرمل ونزحف من جـديد .. والأرض من تحـتنا تهتـز كأنهـا حبلى بآلاف الزلازل .

وفجـأة ظهرت أمـامنا دبابة مـعادية شقـت الضباب وسـحب الدخان ، وأطلقت برأسـها كخرتيت قـبيح .. وأخذت تتقـدم نحونا بخطى بطيئة رهيبة ، ضاربة حولها سياجاً كاسحاً من النيران .

وكل لحظة تمضى كانت تقربنا من موت أكيد ..

موت أكيد يمد نحونا أذرعاً أخطبوطية من اللهيب والرصاص . تحصد فى طريقها كل شىء والأمل واحد فى المليون ..

معجزة ..

أن نلقى بقنبلة يدوية فتسقط فى تلك الفجوة الصغيرة فى برج الدبابة وتنفجر فى سائقها ..

فجوة من عدة سنتيمترات يجلس فيها الموت ونحن نلعب معه لعبة كرة السلة ..

مَنْ يضع الكرة فى السلة !!

والموت يقترب ..

وأسمع وقع خطاه الحديدية وكأنه يمشى على أضلاعى .. وأرتجف .. وأشعر أنى مشلول تماماً .. وأضحك من اليأس والجنون .. وأتلفت باحثاً عن نجدة فأرى ذراع صديقى شارل ترتفع بقنبلة يدوية تلقى بها فى الهواء .. ثم لحظة صمت .. وصرير الدبابة يقترب ويقترب .. ثم انفجار مروع .. وتتوقف الدبابة .

لقد حدثت المعجزة .. ونزلت القنبلة فى برج الدبابة ..

ويقفز شارل ليحتضننى وهو يصيح .. هورا .. هورا .. لقد

انتصرنا .. ثم أشعر بريح ساخنة تلفح خدى وأزيز شىء يمرق كالبرق إلي جوار أذنى .. ويسكت شارل وأتلفت إليه فأجده .. مازل يحتضنى بذراعه .. ولكن بلا رأس .. فقد أطاحت شظية برأسه من بين كتفيه ..

ومكان الرأس فجوة رهيبة ينفجر منها الدم كالنافورة ..

ولكن ذراعه ما زالت تحتضننى فى نشوة خرساء .

يا لها من لحظة فظيعة ..

كان يمسك بى بكلتا يديه .. جثة بلا رأس .. لا يريد أن يفارقنى حيًا ولا ميتاً .. وكنت ما زلت أسمع صيحته .. لقد انتصرنا ..

وصمت جون قليلا وراح يلتقط أنفاسه ثم عاد يغمغم ..

كانت ليلة رهيبة ..

أحياناً يخيل إلى أنها كانت كابوساً ..

وأحياناً أتذكرها فلا أصدق أنها حدثت هكذا كما رأيتها فى الواقع وأننا عشناها بحواسنا ورأيناها رأى العين ..

نعم .. لقد انتصرنا ..

وعاد منا إلى الوطن مَنْ عاد ..

ورقد تحت التراب مَنْ رقد ..

ولكنى لم أستطيع العودة مع العائدين ..

كنت أشعر دائماً بذراعى شارل الحنونتين تضمانى ..

وكنت أشعر أنى أحيا مع الأحياء لأنه أراد لى أن أحيا .. وافتدانى بدمه ..

ولم أستطع أن أفارقه ..

وطلبت من القيادة أن أبقى حارساً على مقبرته فى هذا المكان الموحش فهنا كانت حياتى وهنا كان مولدى الثانى .. وسيكون مرقدى الأخير .

وسكت جون .. ورأيت عينيه تدمعان ..

ومرة أخرى أخرج الزجاجة من جيبه وسكب كأساً جرعها دفعة واحدة كأنما يريد أن يطفىء ناراً بدأت تشتعل فى داخله ..

وطال سكوته ..

وطال تفكيرى ..

وارتفعت وشوشة الموج ..

ثم سمعته يقول وهو ينظر ساهماً إلى البحر ..

إنى أنتظره كل ليلة فى هذا الكشك ..

– تنتظر مَنْ ؟

– لا .. ليس شارل .. إنى أنتظر الرجل الآخر ذى القيثارة ، ولمعت عيناه وخيل إلى أنه يهذى . ورأيته يحملق فى وجهى قائلا:

– لماذا تنظر إلى كما لو كنت مجنونا . إنى لست مجنونا . لقد رأيته كما أراك الآن . الرجل ذو القيثارة ..

– مَنْ هو الرجل ذو القيثارة ؟

وألقى برأسه إلى الوراء وملأ كأساً أخرى وشرد قليلا ثم بدأ يحكى ..

– بعد أن انتهت الحرب بسنوات ، وبعد أن بنينا ذلك السور العالى حول المقابر .. ذات ليلة فى شتاء ١٩٦٠ وفى جو عاصف شديد البرودة ، توقفت عربة فورد قديمة على هذا الباب ونزل منها رجل مهيب خيل إلى حينما طالعت وجهه أنى أعرفه . وأنى رأيت صورته من قبل ، ولكن مَنْ هو ، رحت أعصر ذهنى بلا جدوى . مَنْ هو .. كان يذكرنى بهتلر ولكنه ليس هتلر .. فرانكو .. موسولينى .. لا ليس موسولينى ، مَنْ يكون ذلك الرجل المهيب الذى تبدو عليه ملامح القائد ؟!

وحيَّانى فى أدب واقتضاب ، وقدم إلى نفسه قائلا إنه شاعر وأنه يكتب منذ سنوات ملحمة شعرية عن الحرب .

شاعر .. يالها من ليلة رائعة سوف أقضيها مع الفن .

وشعرت بسعادة لا حد لها ..

وكدت أحتضنه من الفرحة ..

وسارعت إلى حقيبته أحملها عنه..

ولكن .. لا .. إنها لم تكن حقيبة ككل الحقائب ، وإنما كانت أشبه بصندوق قيثارة .

وسألت فى دهشة :

– هل يعزف سيدى القيثارة ؟

– القيثارة ؟ .. آه .. نعم .. إنها هواية قديمة ، لم أستطع أن أتخلص منها .

يالها من ليلة ..

سوف أستمتع بالشعر .. والموسيقى .. والرفقة الممتعة ..

سعادة لا يجود بمثلها الزمان كل مائة عام فى مثل هذا المكان الموحش ..

وأخذته إلى أجمل غرفة فى الاستراحة ، الغرفة التى تطل على البحر والمقابر ومتاهات الرمال الساحرة ..

وأحضـرت أجود ما عـندى من خمور فـاخرة معـتقـة وطعام شهى.. وجلسنا نتـسامر .. ونشـرب .. وأخذ يلقى على مسـمعى روائع من شعره الأخاذ فى نبرات تخطف القلب ..

هل سكرنا تلك الليلة ..

هل فقدنا الوعى ..

لا ، لقد كنت فى تمام وعـيى حينما أشـرت بيدى إلى صندوق القيثارة إلى جواره ، فأجاب فى ابتسامة :

– هل تريد أن تسمع عزفى على القيثارة ؟

وأومأت إيماءة رجاء ..

ولمعت عيناه ببريق غريب ..

ورأيته يمـيل على الصندوق ويفتحـه ويخرج منه .. يا إلهى .. لم تكن هناك قيثارة . وإنما كان هناك مدفع رشاش .

ونظرت إليه فى دهشة .. وعدت أنظر إلى الآلة القبيحة الدميمة بين يديه ..

كانت عيناه يتطاير منهما الشرار .

ورأيته ينتـفض على قدميه حـاملا مدفعـه الرشاش فى وضع

استعداد ، وتراجعت إلى الوراء فى ذعر ، وقلت بصوت مرتعش :

- أنت لا شك تمزح يا صديقى .

فقال بصوت معدنى بارد لا أثر للإحساس فيه :

- لا ، أنا لا أمزح .. إنها صناعتى الحقيقية ، إنى قاتل .. صناعتى القتل ، أما الشعر فهواية أمارسها فى أوقات الفراغ .

- ولكن ..

- وقد حان وقت العمل .. وعلينا الآن أن نقتل ، كفى ما قضيناه من وقت طوال هذه الليلة المتراخية فى الكسل .

- ولكن يا سيدى ..

- أريد أن أقتل .. أريد أن أقتل قلت لك ..

- وجحظت عيناه وأشرع مدفعه الرشاش وامتدت يده لتضغط على الزناد ، وافترت شفتاه عن أسنان تلجية قاسية ، وظهرت على وجهه تلك السحنة التى أعرفها جيداً والتى كانت تبدو على وجوهنا حينما كنا نقتل ..

ومرت بجسدى قشعريرة باردة وقلت متوسلا :

- ولكن يا سيدى ماذا تريد أن تقتل هنا ، إن كل مَنْ تراهم حولك هم قتلى بالفعل ، أكثر من ثمانين ألف قتيل تحت هذا

التراب .

– إذن لا مفر من إحيائهم من جديد لأقتلهم ثانية ، وكدت أضحك وقد أيقنت أنى أمام مجنون ملتاث العقل ، حينما قال فى هدوء :

– هذه سنة الحياة .

– ومَنْ الذى وضع هذه السنة يا سيدى ؟

– القادة المصلحون من أمثالى ..

– وهل القادة والمصلحون صناعتهم القتل ؟

– نعم أيها الأحمق لا بد أن يكونوا قتلة لينظفوا الأرض من الحثالة القديمة ويعدونها لغرسهم الجديد .

– إنها لقصة بشعة ..

– بل هى أغنية رائعة ، قصيدة ، معزوفة موسيقية بديعة ، انظر ..

وبدأ يضغط على الزناد .. ويطلق الرصاص فى الهواء وأنا أقفز من الرعب ، وهو يضحك ويختال راقصاً بمدفعه وكأنه عاشق يخاصر معشوقته ويرقص بها ، ويغمغم فى نشوة .

– إنك لن تصبح قائداً إلا إذا استطعت أن تقتل وأنت تغنى ، لن

تستطيع أن تصنع الحيـاة إلا إذا صنعت لآخرين الموت ، هذه سنة الوجود .

– ولكن هذا شيء فظيع .

– أنت تقول هذا لأنك رجل تافه ، أنت واحد من ألوف التافهين بلا إرادة ممن لا عمل لهم سوى أن تصدر إليهم الأوامر ، أوامرنا.. لن تكون شيئاً في يوم من الأيام ، أنت وغيرك مسامير صغيرة فى العربة التى تقودنا .

– هذا أفضل من أن أقود عربة هى فى الواقع عربة الموت .

– أنت مسمار فى هذه العربة على أى حال .. أردت أم لم ترد .

وراح يطلق الرصاصات وهو يضحك ، وأنا أقفز فزعاً ثم نظر إلى فى إشفاق قائلا :

– لا أمل فى شفائك من التفاهة .. لا أمل ..

واحتضن مدفعه الرشاش فى حنان وأودعه صندوقه برفق وعناية ، ونظر إلى يأساً :

– لا أمل فى شفائك ، أنت لا شيء ، وستظل لا شيء .

وحمل صندوقه ومد يده مودعاً وهو يقول :

– وداعاً يا صديقى ، لن أغيب طويلا ، سوف أعود إليك فى القريب ، وحينئذ سوف يكون كل هؤلاء (وأشار إلى ساكنى القبور) قد ولدوا من جديد ، وتكون هناك فرصة رائعة لمذبحة جديدة . لا تخف (وربت على كتفى) لن أقتلك ، إن قتل فرد واحد ليس من أخلاقنا .. إنها عادة المجرمين .. أما القادة والمصلحون أمثالنا فإنهم لا يقتلون فرداً وإنما يقتلون بالآلوف .. وبالشعوب جملة ، وهذا ما يقتضيه كنس الأرض بين وقت وآخر لبذر المحاصيل الجديدة .

إن عملية الإصلاح عملية شاقة صدقنى ..

ليلة سعيدة ، وتمنيات طيبة لأمواتك ولقاء قريب ..

واستدار ليخرج .. ولكنه لم يخرج من الباب وإنما خرج من الحائط ..

وانتهى جون من قصته وغرق فى الصمت ، ولم يعلق بشىء ، وغرقت أنا فى السكون .

ومن لحظة لأخرى كنت أختلس النظر إلى عينيه ..

كانتا عينين خضراوين وديعتين هادئتين لا يبدو عليهما أثر الجنون ، وكنت أشعر بالحيرة فى أمره وأمر قصته ..

ويبدو أنى أغرقت طويلا فى تفكيرى ، لأنى رأيته يقوم

ويختفى فى الكشك ثم يعود ليسلمنى مفتاح غرفتى ، ويسألنى إذا كنت فى حاجة لشىء ، وفى الطريق إلى غرفتى ، كان مازال يغمغم وهو يمشى إلى جوارى :

– إنه سوف يعود ، أنا أقول لك إنه سوف يعود ..

– أنت تحلم ياصديقى .. مَنْ هو الذى سوف يعود ؟

– الرجل الذى سوف يقتل الألوف وهو يغنى .. الرجل ذو القيثارة .. لقد رأيته يغنى كما أراك الآن ..

رعشـــة

كـانت القـاهرة تحـترق .. وكل واحـد يهـرول فى طريقـه فى خوف، وعـربات الشـرطة تخرج من الظلام تلمع فـيهـا عشـرات البنادق وأنا أسير فى طريقي أرتجف ، ويخيل لى فى كل لحظة أن يداً غليظة سوف تستقر على كـتفى وصوت خشن يقول لى : أنت مقبـوض عليك ، فكل واحد كان يقبض عليـه فى ذلك اليوم بسبب وبدون سبب ، لأنه شيوعى أو إخوانى ، أو أمريكانى ، أو إنجليزى أو مصرى أو مـتشرد ، أو صعلوك ، أو مشـبوه .. أو مراقب ، أو سيىء الحظ ألقته الصدفة بقـرب واحدة من العمارات الكثيرة التى تحترق .

وكـان طريقى إلى منزلى يسـتلزم منى اختـراق عدة شـوارع كبـيرة ، فـرسمت فى ذهنى خطة أتجنب فـيها تـلك الشوارع وإن

احتاج الأمر إلى مسيرة ساعات ، وهكذا وجدت نفسى أسير فى المقابر .

وكان الخوف ما يزال يلازمنى ، وكل عضلة فى بدنى تتوتر لأقل صوت ، والواقع أنه لم يكن هناك صوت سوى صوت تنفسى وصوت وقع أقدامى على الأرض المتربة وصفير الرياح فى أذنى ولكن الحريق كان طوال الوقت أمامى ، والعمارات المشتعلة كالشموع وعربات المطافىء ، وعربات البوليس ، والكلبشات ، وحكم المؤبد والخمستاشر سنة كما يحدث دائماً فى أمثال هذه المناسبات حينما يأخذ القانون راحته وتتحول كل المحاكم إلى محاكم عسكرية ، وتصدر الأحكام فى لحظات ، ويصبح أى ظلم عدلا لا غبار عليه فى سبيل صيانة الأمن .

كنت أرتجف ، وأتخيل أن اواحداً لا بد قد رآنى وأنا أسير إلى جانب فندق شبرد ، والواقع أنى لم أفعل شيئاً ، ولم أرتكب أى مخالفة يؤاخذنى عليها قانون أو ضمير ، كنت أسير ، وهذا كل ما فى الأمر ، أسير أمام شبرد ، مع عشرات من السائرين ، حينما رأيت النيران تخرج من النوافذ ، والنزلاء يلقون بأنفسهم فى الطريق ، وخدم الفندق يلقون السجاجيد فى الشارع ، وعشرات الأيدى تتلقف تحفاً وأشياء ثمينة .. وأشياء أخرى ملفوفة فى ورق، وتماثيل .

وقع عند قدمى تمثال . وكان يبدو أنه تمثال فضى ..

توقفت فى ذهول ، تلفت حولى ، كان كل واحد يحاول أن يلطش ما تصل إليه يده ، لم أفكر أن أمد يدى إلى شىء ليس لأنى رجل فاضل ، وإنما لأن الرعب كان يشل كل حركاته ويجمد أفكارى، سرت فى طريقى مسرعاً وأنا أرتجف .

كنت أتذكر تلك اللحظات الرهيبة وأطمئن نفسى بأننى لم أفعل شيئاً .. لم أمد يدى إلى شىء ..

ولكن مَنْ يدرى أن أحداً لن يختلق على الأقاويل ويطلع على الصباح لأجد نفسى فى الحديد ، والمحقق يقول لى أثبت أنك كنت فى مكان آخر ساعة الحريق وكيف أثبت أنى فى مكان آخر وقد كنت فى ذات المكان وذات الساعة .

كانت آلاف الهواجس تروح وتجىء فى ذهنى ، وكنت أرتجف طول الوقت حينما خيل إلى أن هناك وقع أقدام خشنة تسترق الخطى خلفى .

وتوقفت فى ذهول الرعب لأتأكد أن ما سمعته لم يكن واقع أقدامى أنا ..

كان السكون فظيعاً ، والريح تصفر .

وجاءنى وقع الخطى يطرق الأرض المتربة ثقيلاً مبهماً .

وتجمدت فى مكانى وتثلجت أطرافى وسرت فيها قشعريرة باردة ، وأدرت عنقى ببطء لألمح خلفى ظل مارد أسود لرجل ضخم الجثة يتقدم فى اتجاهى ، وسقط شعاع المصباح الوحيد على كتفه ولمعت نمرة نحاسية وبندقية مشرعة .

كان شرطياً .

إن ما حسبت حسابه قد حدث ، وأطلقت ساقى للريح .

ومن خلفى انطلقت الخطوات الثقيلة تدق الأرض تباعاً فى مطاردة حادة وكنت أسمعها تقترب وتقترب ، وكأنها تدق على باب أذنى .

وكنت أسمع لهاث الشرطى وهو ينادينى ، وأنا أهرول فى جنون فى كل طريق ينفتح أمامى ، وقد أفقدنى الرعب صوابى .

بعد دقائق يلتف الحديد حول يدى ، وبعد دقائق أخرى يواجهنى المحقق بالسؤال التقليدى ، أين كنت ساعة الحريق ، ثم يلقى بى فى السجن مع المئات ، وأقضى الليل على رطوبة الأسفلت .

كانت المخاوف تسرى كالكهرباء فى ساقى فتطلقها كالريح ، ولكن الأقدام التى تدق الأرض من خلفى كانت أسرع منى ، وما لبثت أن شعرت بذراع ثقيلة على كتفى ، وتكومت إلى جوار

حائط كفأر مـذعور وأنا أنتفض ، ونظرت إلى الشرطى الذى لحق بى ولدهشتى رأيته هو الآخر ينتفض .

كان وجهـه ممتقعاً وعـيناه جاحظتين وكان يشـير بذراعه إلى ناحية المقابر ، ويتهته بصوت مرنجف :

- هل رأيته ؟

- رأيت ماذا ؟

- الـ .. م.. م .. ميت الذى خرج م .. من تربته .

- أى ميت ..

- فى التربة الـتى أمامهـا صبارتان ، لقـد رأيته يخـرج وعليه كفنه ، رأيته يخرج ذراعيه وساقيه .

وكان الرعب قد بدأ يزايلنى وبدأت ابتسامة شاحبة تزحف على شـفـتى ، كـان الرجـل يتكلم والبندقـيـة فـى يده ، ويده ترتعـد والبندقية ترتعد .

ورأيت نفسى أربت على كتفه وكان ما يزال يتكلم .

- رأيته واقفـاً وعليه الكفن . صدقنى لقد رأيتـه بعينى هاتين ، فأنا أعرفه وأعرف حكايته ، فقد مات قتيلا .

- وهل كل مَنْ يموت قتيلا يقوم من تربته بعد الموت ؟

– نعم . إن روح القـتـيل لا تعرف راحـة ولا اسـتـقـرار إلا إذا انتقمت من قاتلها .

– وهل فى إمكان الأرواح أن تنتقم ، هل لها سلطة ؟

– لا حول ولا قـوة إلا بالله ، وهل هناك سلطة فى الأرض تعلو على سلطة الأرواح ..

وطيبت خاطره وطمأنته ، بأن ما رآه كان وهماً ، وأنه لا أرواح هناك ، ولا أحد فى هذه القـرافة صاحب سلطة سـواه هو وسوى بندقيته المليئة بالطلقات .

ولكنه ظل يؤكد لى وهو يتلفت أن الأرواح موجودة ، وأن روح هذا القتيل هى التى تحكم هذا المكان ، وهى صاحبة السلطة المطلقة فيه ، وأن البندقية لا حول لها ولا طول أمام قوة الروح اللانهائية، وظل يستعيذ بالله من الشيطان ومن الكفر والكافرين .

وكـان مـا يزال يرتجف ويتلفـت حولـه فى ارتيـاب ويلوذ بى وتذكرت خوفى منه ..

وضحكت ..

وكان ما يزال يتحدث عن الأرواح ويناقـشنى فى يقين لا يهتز قـائلا : إن الأرواح يمكـن أن تلبس الناس ويمكن أن تـسـخطهم ، ويمكن أن تصـيـبـهم باللـوثة ، وإن أكـثـر الناس فى هذه الدنيـا

ملبوسون ، وإن فوق كل حكم فى هذه الـدنيا حكماً علوياً تصدره محكـمة الأرواح السمـاوية ، وأنه فى هذه السـاعة من كل مـساء تعقد هذه المحكمة .

– أى محكمة ..

وكـان عقلى قـد سرح فى المحكمـة الأخرى وفى الحـديد وفى رطوبة الأسفلت ، وسرت فى بدنى رعدة .

وكان هو يرتعد هو الآخر ويتكلم عن المحكمة التى فى السماء.

وكنا كـلانا نتحـدث فى وقت واحـد ، كل واحد يتـحدث بلغـة خاصة لا يفهمها الآخر ..

حيـــاة الأعـــزب

الجمعــة :

أنا حاكم لا شريك له على بيت أنيق .

ليس لى ثان فى دولتى الصغيرة الجميلة ، أستطيع أن أصحو متى شئت ، وأنام متى شئت ، وأخلع ثيابى وأغنى وأطرقع مفاصلى .. وأشرب الماء أو العرقسوس أو الويسكى كما يحلو لى .

ليس على أكتافى شىء سوى رأسى ، لا مسئوليات ، لا هموم، لا مطالب ، لا واجبات ، فأنا أعزب ، كلمة جميلة حلوة ، هذه الكلمة أعزب ..

لقد تذكرتها وأنا أحلق ذقنى ، وأنظر إلى وجهى فى المرآة ، فصفرت بفمى نشيد المارسليز احتفالا بالحرية المطلقة التى أعيش

فيـها ، والإمبـراطورية الواسعـة التى أحكمها ، والتـى تتألف من ثلاث غرف وصالة وحمام أنيق بالقيشانى .

سوف أنام الليلة ملء أجفانى ، تحلم بى كل عانس ، ويحسدنى كل زوج وتجعل مـنى بنات السادسة عـشرة مـحوراً لمغـامراتهن ويحـمل همى الخـادم والبواب والجـيـران ، ولا أحمل أنا ســوى ابتسامة واسعة ساخرة معها أخر نكتة من نكت الموسم .

يقـولون إن حيـاة الأعزاب تعـاسة ، ووحـدة وفراغ وفـشل .. وهذه خـرافة خـلقهـا الأزواج لأنهم فـشلوا فى أن يكونوا عـزابا ناجحين .

ومثلها حكاية البـيت الدافـىء والأولاد الذين يمدون بقاء الزواج على الأرض ، والزوجـة التى تضـىء ظلام الوحـدة مـثل القنديل ، وحديث آخر الليل الذى يتقاسم فيه الزوجان المسرات والهموم .

كل هذه إعلانات مثل الإعـلانات التى تروج بيع الصابون وملح كروشن والأسبرو ، أما الواقع فهـو شـىء آخر غير هذه الإعلانات فـالبيـت قد لا يدخله الدفء بـالمرة والابن قد لا يمـد أجل أبيـه .. وربما أخـذ أجله .. والزوجـة قد تكون نكدا .. وحـديث آخـر الليل غالبا ما يتحول إلى مراجـعة للحسابات تنتهى بخناقة وبأن يعطى كل واحد ظهره لصحابه ووجهه للحائط .

خذوا الحكمة من أفواه المتزوجين .

إن من عادتى أن أترك ملعب الزوجية ينزل فيه أصدقائى ، وأكتفى بالتهليل على كل هدف يصيبه أى واحد من الاثنين ..

وما زلت أشكر الله على هذه النصاحة ، وأشعر بالتلذذ وأنا أتأمل وجهى فى المرآة ، وأجر عليه الموسى وأحلقه بعناية قطعة قطعة ، وأبحث عن ينابيع النصاحة فى عينى ، وأصفر بصوت مرح يخرج من نافوخى ، وأقول أنا حر .. أنا أعزب ..

السبت:

دفتر يومياتى يقول إنى محجوز على الغذاء والعشاء لمدة أسبوع مقدماً .

إنى على حق فى إلغاء المطبخ من شقتى ، فما الداعى للمطبخ ما دمت أتغذى فى أقرب مطعم وأتعشى عند أقرب صديق .. وأغسل ثيابى عند أقرب مكوجى ، وأعود للبيت لأنام .

لقد قالت لى صديقتى اليوم :

- أنت رجل مضيع ، أنت موزع على طول الشارع الذى تسكن فيه بين البقالين والحلاقين والمكوجية والمطاعم والمخابز .

إن بيتك ليس بيتاً ، إنه مجرد سرير سفرى جاراج .. خيمة كشافة .. تتزود بالتموين من كل رصيف ..

أنت متشرد ..

وفهمت من كلامها أنها تلمح لى بالزواج بأسلوب ماكر مهذب فقلت لها بهدوء :

– أنا رجل عصرى لا أضيع ثروتى فى البيت تحت البلاطة ، وإنما أساهم بها فى كل البنوك أيكون هذا تضييعاً لى .

فقالت فى غيظ :

– وتساهم بحبك فى كل القلوب ، أليس كذلك ؟ إنك تحاول أن تضمن الواحدة بعقد علاقة مع أخرى ، ولكنك تخسر الاثنين لأنك تخسر الثقة ، إن كل شىء فى حياتك لا يبعث على الثقة ، وأنت نفسك لا تثق بنفسك .

ودمعت عيناها وأردفت فى يأس :

– إنك تجعل الإخلاص مستحيلا ، ثم تبكى لأنك لا تجد الإخلاص ألست رجلا مغفلا ..

فقلت فى ضيق :

إن الإخلاص يولد من نفسه ولا يولد بالحقن والمواثيق ، أنا

رجل واقعى لا أطلب من الطبيعة البشرية أكثر مما تستطيع أن تعطيه .

– إن الغلب عندك طبيعة ، أنت غلبان .

وشعرت بالغيظ ربما لأنى غلبان فعلا ، ولكنى لم أجب بكلمة وقالت هى بعد فترة :

– أريد أن أعرف .. ماذا تريد من وراء هذا كله ، فى مقابل أى شىء تعيش هذه الحياة ؟

وأجبت فى يقين :

– أريد أن أحتفظ بحريتى ..

– بالضبط تريد أن تحتفظ بحريتك مجرد احتفاظ ، لأنك لا تفعل بها شيئا .

ورفعت صوت الراديو ليغطى على صوتها ، وفاض بى الضيق.

إن المرأة تفقد نصف جمالها حين تلمح بالزواج ، وتفقد النصف الآخر حينما تتحدث عن الفلسفة والمنطق – وخصوصا إذا كان كلامها فى محله .

الأحـــــد :

تيقظت متـأخراً هذا الصباح ، وفتحت نصف عـين على شعاع الشمس الذى يداعب وسـادتى .. ثم عدت فأغلقتـها ، وبدأت أفكر من حيث انتهينا فى الليلة الماضية .

ماذا أريد من هذا كله .

حريتى ..

وماذا أفعل بحريتى ..

إنى أرفض اخـتيـار طريق لأنه يقـيـدنى ، وأفضـل البقـاء فى مفترق الطرق ، أعانى الحرية - ولا أمارسـها .

أهو إحـسـاس بالمسـئوليـة .. أم جبن .. أم تغـفيل ، إنى دائمـا أكتشف أنى مثالى من حيث أظن أنى واقعى .

إن الواقعية لا تقف فى مفترق الطرق أبداً .

الواقعية لا تعلق إمكانياتها ، وإنما تثب وتعمل .

وأنا أعلق كل شـىء على مشجب .

ورفعت السمـاعة لأطلب صديقتى . فقـالت لى إنها خطبت إلى ابن عمها ، وتمنت لى أياماً طيبة .

ووضعت السماعة فى سكون وتلفت حولى ، ولأول مرة أكتشفت أن فى شقتى صراصير ، وأن العنكبوت يتدلى من جدرانها .

وتذكرت أن المكوجى قد أخذ كل القمصان للغسيل ولم يحضرها وأن كل الصحون قذرة ، وأحسست أنى أكسل من أن أنظف صحناً ، فأرسلت البواب ليشترى لى صحنا جديداً ، ثم زعقت عليه بعد أن قفز بضع درجات على السلم .

- استنى عندك .. خذ اشترى لى قميص كمان علشان ماعنديش قمصان ..

وأغلقت الباب ، وعدت أتمشى فى الصالة ، ثم بدأت أدير البيك آب ، ووضعت أسطوانتى المحببة .

ووقفت فى النافذة ولكن البيك آب ظل يخشخش .. واكتشفت بعد مدة أن طبقات من التراب واقفة فى حلقه ..

ولا أدررى لماذا تذكرت حكاية الإمراطورية الواسعة التى أحكمها فى تلك اللحظة ، وأحسست أنى إمبراطور فعلا . ولكن إمبراطور على خرابة .

الاثنين :

ذهبت فى زيارة فرج ، وهو صديق قديم أعرفه من عشرين

عاماً ، ووجدته يدخن الجوزة وسط أولاده الخمسة ، وكان أكبر أولاده يمص عوداً من القصب ويضع المصاصة فى طربوشه ، وأصغرهم يقف وسط الغرفة بالفانلة واللباس ، يلوح بذراعيه الرفيعتين .

وكانت نونا الصغيرة تخرج لسانها ، ثم تقفز على الكرسى وتؤذن .

وكان فرج وسط هذه الهوسة يضحك ويكركر بقلب طليق ، وبين حين وآخر يفرغ الطربوش من مصاصة القصب فى صينية على الأرض قائلا فى حنان :

- بقه كده يا ولد ياتنتون ، تحط الزبالة فى طربوش أبوك ثم يضحك ..

- عفاريت الولاد دول .. عفاريت ..

وطول الزيارة كنت أفكر في سؤال واحد .

كيف أضيق بهذا الصرخ ولا أكاد أحتمله دقيقة واحدة ، وكيف احتمله فرج عشر سنوات .. وهو يضحك .

أهناك سر بين الأب وأولاده .. يجعل كل شىء محتملا سر لا يفهمه الأعزب ..

ربما .. أنا لم أجرب على كل حال ،

الخميس :

بعد ليلة حمراء

رأس ثقلية .. جسمي مثل مدينة اكتسحها زلزال ، أعضائي تهدمت ، عظامي مثل أعمدة معبد انهارت وانهار فوقها السقف .

إني أسأل نفسي ، أهذه هي اللذة ، أهذه هي السعادة التي يتزوج من أجلها الناس ؟

مجانين ..

إني لا أجد فيها سبباً أتزوج من أجله .

إنها مجرد رغبة حمقاء . لا شأن لي بها ، الطبيعة تدفعني إليها وتشوقني وترغمني فأسعى إليها كما يسعى النمل وأمارسها في غباء ثم أفيق على لا شيء ، ولا تبقى من النار الموقدة إلا مجاملات فاترة .

خمس دقائق فقط ..

كيف أتزوج من أجل خمس دقائق ؟!

السـبت :

سألت نفسى ، ما هو الحب ، وبعد تـفكير طويل اكتـشفت أن الحب هو أن يبـقى شىء بعـد الخـمس دقـائق ، هو أن تبـقى فى النفس حاجات تدفع الاثنين على البقاء معاً .

الحب هو رغبة بين اثنين لا تستنفذها الطبيعة ، رغبة شخصية لكل منهـما فى الآخـر ، ليس لكونه ذكراً ولا لكونهـا أنثى ، ولكن لكونه فـلاناً .. ولكونها فـلانة ، ولكونهـما مـشدودان بخـيط من الفـضول والدهشـة والإعجـاب ، كل منهـما يحب أن يصـغى إلى صـوت الآخـر ، حـتى ولـو لم يكن يتكلم ، يـصـغى إلى صـوت وجوده.

فكرت فى هذه العبـارة ثم ضحكت ، يالى من شاعـر وتذكرت أخى وهو يقول لى كل يوم :

إلى متى تظل أعزب ؟ متى تفكر فى الزواج ؟

وهو لا يدرى أنى أعزب لأنى أفكر فى الزواج ، أقتله تفكيراً كل يوم وأفكر فى الحب وأقـتله تفكيـراً .. ثم أقـتل نفـسى من كثـرة التفكير فى نفسى ، ثم لا يبقى بعـد هذا إلا أشباح رغبات ، وشبح آخر أحمـق ثرثار هو أنا ، لا يفتأ يسـأل .. ويسـأل .. يسأل لماذا .. وكيف .. ومتى .. وأين .. وإلى أين ..

الراهبة والميكرسكوب

فى ذلك المبنى العتيق الجليل ذى البشرة الكاحلة . كان كل شىء يجرى فى همس ، فنحن فى الكوليج دى فرانس ، مدرسة الراهبات ، ذات التاريخ المهيب .

وعلى طول الممر المبلط المحاط بالأشجار لم تكن ترى أو تسمع غير تلك الأشباح الرقيقة الملفعة بالبياض وهى تخطو فى سرعة هنا وهناك إلى الفصول .

وعلى السلم الحجرى الأحمر كانت الراهبة تيريزا تصعد فى نشاط حاملة صفاً من الكراريس ، والتلميذات الواقفات حول حوض زهر البنسية يحيونها بابتسامة مضيئة ويجرون خلفها.

إنهن سوف يستمعن اليوم إلى الأخت تيريزا تشرح لهن بأسلوبها الممتع فصلاً جديداً من كتاب علم الأحياء .

وتيريزا بعينيـها الشاردتين الجميلتين تبـدأ درسها فى صوت خافت تائه ..

وكل مَنْ ينظر إلى عينى تيريزا الواسعتين كبحيرتين كان يرى دائما ذلك التيه والشرود ، وكأنما فى أعـماق البحيرتين ملاح تائه لم يجد بعد طريقه إلى شاطىء .

وكـانت تيـريزا تتـحدث عن (مندل) الـذى اكتـشف قـوانين الوراثة .

إنه الراهب جريجور مندل .

الأب المستنير الذى رأى فى الرهبانية عملاً واجتهادا ومساهمة إيجـابية لخـير الناس ، ولم ير فـيهـا انقطاعاً فـارغاً للصـلاة فى صومعة بالصحراء .

كـان مندل يقـضى السـاعات كـل يوم يتأمـل أزهار حديقـتـه ويجرى التـجارب على نباتات البـسلة ، فيلاقـح بين النباتات ذات الزهر الأحمر والنباتات ذات الزهر الأبيض ، ويتابع صفات النسل النـاتـج ويدون ملاحظاته بدقة فى نوتة .

ومن هذه الملاحظات اسـتخرج قـوانينه الشـهـيرة فى الوراثة .
كان الأب المستنير يرى فى حديقة الله كتـاباً مقدساً فصيح العبارة

بليغ الكلمـات ، وكان يرى أن الأصـفيـاء الأنقيـاء يستطيـعون أن يقرءوا إرادة الله بالنظر فى حديقته وتأمل صنعته .

وكانت التلمـيذات الصغـيرات يستـمعن مأخـوذات إلى حديث تيريزا الـساحر ، وقـد خلبت أفئـدتهن بنبرتهـا الرقيقـة الخافـتة المشحـونة بالعاطفـة التى تروى بها دقـائق العلوم وكأنـها تروى قصة حب مثيرة .

والواقع أن تيريزا كانت فى حياتها الخاصة أشبه بمندل .

كانت تسـبح بعينيهـا الحالمتين دائمـا وراء السحاب بحـثاً عن حقيقة ، وقـد وهبت نفسها كلها روحاً وجسداً وعـقلا للتفكير فى الملكوت وتأمل صنـائع الله الباهـرة ، وقد شـغـفـها علم الأحـيـاء واستغرقتها تلك الأسرار الكامنة فى الخلائق .

وقد لمـست فيهـا الأخت أنجيـلا رئيسـة المدرسة هذا الشـغف العلمى ، فشجعتها وأوفدتها فى بعثة للحصول على الماجستير فى علم الأحياء من كلية العلوم .

وكانت تيريزا تدرس للتلاميـذ فى الصباح ، وفى المساء تحمل كراساتها كتلميذة مجدة لتتابع دراساتها العالية فى الكلية .

وكانت حياتها الجديدة ولقاؤها اليومى مع الحياة فى الكتاب .. ولمسها لهذه الحياة فى المعمل يجعلها ترتجف نشوة .

حينما تضـع عينها على الميكروسكوب لترى مـادة الحياة رأى العين ، وتكـاشف سرها ومكنونها فـى تلك العلبة السـحرية التى اسمـها (الخلية الأولى) ، ذلك الحـيوان البسـيط الذى يتألف من خلية واحدة عـريانة بلا جلد ولا عظام ولا أجهزة معقـدة ، مجرد قطرة جيـلاتينية تتحـرك وتعقل ما ينفـعها وما يضـرها ، وكيف تتـــحـرك هـذه القطرة بلا أرجل وبـلا أهداب وبلا زعـانف وبلا عضـلات ، كيف تبصـر الضوء بلا عين وتسـمع الصوت بلا أذن وتأكل الطعام بلا فم ، ثم تهـضمه بلا مـعدة وتمتصه بلا أمـعاء ، كيف تتنفس بـلا رئة ، وتميز نفعـها من ضرها بلا عـقل ، وكيف تنفث السم فى عـدوها بلا غـدة ، وكـيف تقـوم بهـذا العـديد من الوظائف المعقـدة وهى البساطة بعـينها بل هى البسـاطة المطلقة ، مجرد قطرة من شىء شفاف .

كان ما تراه تحت العدسة السحرية شيئاً باهراً ..

وكـانت قطرات العرق تتـجـمع على جنبـيهـا الأبيض الناصع وقلبها يدق من الرهبة وكأنها أمام قدس الأقداس ..

فها هنا السـر المحجب يطل عليها بوجهه الشـفيف ويتكلم بلغة فصيحة ..

ولكن أين مَنْ يعلم سر هذه اللغة ..

الله وحده عنده العلم ، وهو يهبه لأحبابه ، وأصفيائه ، وزملاؤها ينادونها بالأخت تيريزا .

الأخت الطيبة النقية تيريزا .

لا أحد منهم استطاع أن يجاوز هذه الحدود الأخوية ، وما كان يلقى إليها من كلام خارج هذه الحدود ، لم تكن تفهمه ، لأنها كانت دائما مشغولة بشىء آخر ..

كانوا يقولون لها .. أنت جميلة .

وكانت تبتسم، فالجمال عندها له معنى مختلف عن مقاصدهم ، الجمال عندها هو الذى تتطلع إليه فى غروب الشمس ، وفى طلعة القمر وفى جناح الفراش وفى غلالات السحب ، أما الجمال الأنثوى الذى يتكامون عنه فلم تكن تعرفه ، فلم يسبق لها أن تفحصت ملامحها فى مرآة ، ذلك الغرور المألوف الذى تستمتع به كل امرأة فى سنها ، لم تعرفه ، تكوين عقلها الدينى أبعدها دائماً عن هذه النظرة المزهوة إلى جسمها ، وذلك التعشق المفتون لذاتها .

ونستطيع أن نقول إنها لم يسبق لها أن رأت جسماً أبداً فما تلبسه من أردية فضفاضة كان يحجب عنها تفاصيل جسمها كان يحجبه عن الآخرين .. وعدم استعمالها لأى مساحيق أو طلاء

لوجهها أو صباغ لشعرها لم يعقد بينها وبين المرآة تلك العلاقة الحميمة ، التى تقضى فيها الساعات تتفحص نفسها كما تفعل الأخريات .

كانت الأخت تيريزا نسيجاً وحده بين النساء .

كانت أشبه بهاملت الحائر .. المشغول العقل والفؤاد .

كانت عاشقة للطبيعة والحياة محبة للمعرفة ، سابحة بعقلها وراء علل الأشياء ، تتساءل ، وتبحث عن الحياة فى بكارتها لتستلهمها الجواب .

ولهذا صفقت بيديها كالطفلة فى ذلك اليوم القائظ من أغسطس حينما قالت لها رئيسة مدرسة الراهبات أنجيلا ، إنها اختارتها لتشرف على رحلة المصيف ، وأنها حجزت فندقاً منعزلاً فى شاطىء غير مطروق ، لتقضى فيه الراهبات شهر صيف جميل بعيداً عن الفضول والازدحام .

إنه لقاء آخر بالطبيعة ..

بالسماء والبحر والرمال البكر ..

بالليل والصمت والسكون حيث لن تسمع إلا همس الطبيعة فى أعماقها ، وحيث كلمة السر تقولها الروح ، ويفشيها الليل والصمت .

أية سعادة :

كانت تيريزا تجهز حاجياتها القليلة فى لهفة وكأنها ذاهبة فى لقاء حبيب .

وما أقل حاجيات تيريزا فى المصيف .

لم تكن تعرف شيئاً عن الأرواب البشكير الأنيقة ومايوهات البكينى ، والشباشب المحلاة بفصوص الفيروز والبنطلونات الهيلانكا والقبعات الملونة .

وإنما هى مثل عسكرى المرور كل ما يعرفه عن الفرق بين الصيف والشتاء هو الأفرول الأبيض بدلا من الأفرول الكاكى .

وأفراول تيريزا ذو أكمام فضفاضة وهو ينسدل حتى القدمين..

وعلى الرأس كاب أبيض يغطى الشعر كله ..

■ ■ ■

وما أسعد تيريزا حينما التقت بالبحر .

إن وقفة الشاطىء أشبه عندها بالوقفة أمام محراب ، وهذا البساط الأزرق هو كمائدة مذبح مصنوعة من الزمرد ..

والرمل الأبيض اللؤلؤى كأنه ماس مسحوق ..

وذلك النسيم الذى يتخلل اللحم ويعانق الخدود ..

وذلك التناسق الموسيقى بين تشكيلات السحب وألوان الغروب .

وتيريزا النشوانة فى غرفتها بالفندق تطالع مصادفة تلك المرآة الكبيرة المنصوبة على الحائط ، وترى لأول مرة ذلك التناسق الموسيقى الجميل بين أجهزة جسمها ، خصرها الدقيق المرهف وصدرها النافر ، وكتفيها المستديرين فى نعومة ، وردفها الممتلئين وحبائل شعرها الثرى مثل سنابل القمح ، وجيدها المرمرى وهو يحلق من بين كتفيها فى انسياب رشيق ، وعينيها الواسعتين كبحيرين من عسل وأنفها الدقيق المتسائل .

وقفت مبهوتة لحظة .

وكأنها ترى لأول مرة امرأة لا تعرفها .

وغضت من بصرها فى خجل غامض وتضرجت وجنتيها بحمرة قرمزية .

وعادت لتختلس النظرات فى حياء وانفعال إلى تلك المرأة البضة كبرعم مغسول بالندى وغمغمت فى صوت خافت مضطرب .. تيريزا .

وكأنها تنادى حقيقة مغيبة فى أعماقها ، وتتعرف على نفسها

التى تاهت من ألوف السنين .

وراحت تتحسس شعرها وعنقها واستدارة كتفيها بأنامل نحيلة مرتجفة مبهورة .

وشعرت بأن الدم يصعد إلى رأسها ، واجتاحتها فورة من الحمى والعنفوان ، فأسرعت ترتدى ثيابها فى ارتباك كأن هناك ألف عين تراها من ثقوب الباب ، ثم خرجت تجرى على الشاطىء تطلق ساقيها بأسرع ما تستطيع وكأنها غزالة يطاردها سهم صياد .

وكان الشاطىء خلاء فى تلك الساعة من الليل ..

موات .. وسكون ..

لا صوت سوى تلك الوشوشات الرتيبة يهمس بها الموج المتكسر على الرمل .

وكتبت تيريزا فى مذكراتها تلك الليلة ..

كنت أرتجف بشعور غامض وكأنما انفجرت داخلى ينابيع الحب والنشوة دفعة واحدة ، فغمرتنى واكتسحتنى مثل قشة فى عباب .

كانت تستبد بى رغبة فى احضان كل شىء .. كل شىء كنت

أريد أن ألقى بنفسى عارية فى البحر وأحتضن الموج وألمس حقيقته وأباشرها وألثم روحه وأشمها .

كنت أقول لنفسى : لن يرانى أحد فى تلك البقعة المنعزلة من الشاطىء فى تلك الساعة من الليل .

لا أحد سوف يطلع على جسدى العارى سوى الله ، والله يرانى دون أن أخلع ثيابى والله يرانا جميعاً على حقيقتنا .

إنه لا يخفى عليه شىء ، يستوى عنده أن نكون عراة أو محجبين إننا دائما عراة أمام بصيرته النافذة .

كان البحر ينادينى وكأنه حضن أمى .

وخلعت ثيابى فى نشوة طفلة تريد أن تهرع إلى أمها لتحميها وألقيت بنفسى فى الماء ، وارتجفت أعضائى لذة وسعادة ، وشعرت بأن الطبيعة تحتضننى وأنا أحتضنها ، وشعرت بدغدغة مخدرة تسرى فى بدنى كله ، وشعرت بأنى أذوب وأتلاشى وأفقد فرديتى وأصبح مجرد جزء من كل ، مجرد خلية فى جسم رائع متكامل اسمه الطبيعة .

وخيل إلى كأنما الوجود يهمس إلى .

ومن أعماق الظلام والسكون جاءنى صوت أليف أعرفه ، إنه صوت ابن عمى الذى تركته منذ سنوات فى أسيوط .

أنا أحبك يا تيريزا وسوف أنتظرك .

لن أتزوج مـا دمت حـرمت على نفـسك الزواج بدخـولك سلك الرهبنة .

سوف أنتظرك حتى أموت أو تعودى إلى ، أنا أحبك ..

وفهـمته ، فهـمته لأول مرة فى تلك اللحظة ، وعـرفت ما الذى يشعر به حينما يقول ، أنا أحبك ، سوف أنتظرك حتى أموت .

وفهمت لماذا تنقنق ذكور الضفاضع بالليل لتنادى إناثها ، ولماذا تتجـمل الطواويس ، ولماذا يتلون الورد ليـجذب الفـراش فيلقـحه ليخصب ، ولماذا للأسد لبدة من الشعر الثائر وللديك عرف ، ولماذا يطن البـعـوض ويغنى البلبل ويصـدع الكروان ، ويهـدل الحمـام ويصـهل الحصـان فى لحظة لقائه مع أنثاه ، ولماذا تضىء الحباحب كأنها القناديل لتدل رفيقاتها على مكانها .

ولماذا أوقد الله كل تلك الشموع فى محفل الحب والجنس .

ولماذا بارك الله بيده هذه الشجرة من التزاوج .

ولماذا وشج بيده هذه العلاقات وعانق بينها .

ولماذا خلقنا الله ممدودى الأذرع تائقين إلى العناق .

فقـد كنت فى تلك اللحظة ممدودة الذراعين أنا أيضـاً تائقة إلى

عناق .. تائقة إلى عناق .

لم يكن صوت الخطيئة هو الذى يتكلم داخلى وإنما صوت الطبيعة وإرادة الله .

وكيف تكون إرادة الله خطيئة ؟

إنها إرادة الله أن نتعانق تحت خميلته الظليلة .

وهذه الموسيقى صوته وهذه الفرحة فرحته وهذه الألوان المبهجة زيناته التى علقها بيديه لترقص تحتها كل الخلائق .

وشعرت برغبة فى أن أغنى وأزغرد وأسبح عارية إلى الأبد بلا خجل .. فليس فى الطبيعة ذلك الشىء الذى اسمه الخجل .. إن الأشجار لتتباهى بأزهارها وهى أعضاؤها التناسلية وتضعها فى أظهر مكان وكأنها نياشين شرف وكأنها فخورة مزهوة لأن الله خلق لها هذه الأعضاء التى تلد بها وتتكاثر وتنجب ملايين البذور.

رأيت البراءة حولى فى كل شىء ،، وتساءلت فى حيرة .

لماذا لم يقل لنا الآباء الذين عاشوا حياتهم يتأملون الزهر والثمر وانقطعوا فى البرية يستمعون إلى الطير ويصغون إلى وحوش الفلاء ، ما قالت لهم الرمال والفيافى والنجوع الخضر أم أنهم لم يسمعوا شيئاً ، ولم يفهموا تلك الصرخة التى تصرخ بها كل الأحياء فى ضراعة لكى تستمر وتخلد .

لماذا وصموا كل شيء بوصمة الخطيئة ؟

وكيف تكون الطبيعة خطيئة ؟

وكيف تكون أعضائها خطيئة ؟

وكيف تمحو إرادة الله ما رسمته إرادة الله ؟

إلهى بوركت يدك التى رسمت الجمال على كل الخلائق ..

إلهى ما أجمل كتابك هذا الذى كتبته من سطور الليل والبحر والسماء والنجوم ، ومن صفحات الموج وتغريد البلابل وزقزقة العصافير .

إلهى .. كيف أخجل من نفسى .. وقد خلقتنى ..

■ ■ ■

كانت الأخت أنجيلا رئيسة الدير تنظر مشدوهة فى الاستقالة التى قدمتها تيريزا من سلك الرهبنة ، وتقرؤها مرة بعد مرة غير مصدقة .

وقالت أنجيلا فى صوت حزين وهى تنظر إلى تيريزا الواقفة أمامها فى دهشة .

- أما عدت تحبين الله ياتيريزا ؟

أجابت تيريزا بصوت يختلج بالعاطفة :

– بل أحبه .

وسكتت لحظة لتردف بصوت خافت :

– إنما أحبه الآن بطريقة مختلفة

وتمتمت أنجيلا بصوت خافت مرتجف ..

– تيريزا .. إنى لا أفهم ..

– أختاه المقدسة .. إنما حاولت أن أفهم أنا الأخرى .. ورأيت أنى سوف أخدم الله أكثر وأنا خارج الدير .

– تيريزا .

– إنما أردت أن أكون أكثر محبة للدنيا والناس ..

– تيريزا .. كفى هذه خطيئة .. أنت تعطين نفسك للرجل بدلاً من أن تعطيها للرب .. وهذا دنس .

– أستطيع أن أصون جسدى من الرجل ولكن كيف أصون عقلى من التفكير فيه ، إن ما أبذله من جهد سوف يعذبنى أكثر ، إنى سوف أكون كمن أرادت أن تصون جسدها من عضة الكلب فأعطته عقلها ينهشه ، وهذا أبشع .

– رباه كفى ، هذا تجديف ، لا أريد أن أسمع كلمة واحدة .

وحينما خرجت تيريزا ، واختفى آخر صوت لخطواتها فى الممر الطويل المحاط بالأشجار .. كانت أنجيلا تمسح دمعة انحدرت على خدها وتهمهم لزميلتها الأخت العجوز لورا ..

– أكان خطأ منى أنى أرسلت تيريزا لتتعلم ، أيخرج كل مَنْ تعلم عن ناموس الدين وطريقه . لماذا يتركوننا بعد قراءة تلك الكتب ؟

وردت لورا :

– ما كان يجب أن يقرءوا تلك الكتب .. فما يوجد شىء يستحق أن يقرأ فى الدنيا سوى الكتاب المقدس .

– بل إنى لأحب كتابى المقدس أكثر كلما قرأت الكتب الأخرى.. ولا أفهم كيف لا يقربنا العلم من الله وهو الحقيقة الكبرى لا أفهم.

وكانت الأخت لورا العجوز الشديدة التدين ما زالت تصر على أنه لا يجب أن يقرأ شىء سوى الكتاب المقدس ، ولا يجب أن يتعلم هؤلاء الأطفال سوى الكتاب المقدس ، وأن ماعدا ذلك تجديف ..

وكانت أنجيلا تهمس والدموع تخنقها ..

– ولكنى لا أفهم .. لا أفهم ..

السجين

المريض الجديد الذى جاءوا به من السجن وأغلقوا عليه باب الغرفة رقم ٥ بالمستشفى ، لم يذق طعم النوم من شدة الحر .

لقد مضت عليه ساعات وهو يذرع الغرفة ببصره ويتأمل نافذتها العالية التى تسدها القضبان ، فلا يجد فرقاً يذكر بينها وبين الزنزانة التى كان فيها .

ربما كان السرير والكومودينو ، والطبيب الذى يمر عليه والممرضة التى تعطيه الحقنة ، تؤلف نافذة إضافية يطل منها على الخارج ، ولكنها زنزانة فى النهاية ، وكل الزنازين واحدة .

وتلفت نحو شق فى الحائط تدخل منه الشمس فى خيط رفيع كذيل البرص ، ثم عاد فركز بصره على النافذة التى تسدها القضبان .

وكان وهج الشمس يلمع فى النافذة والحر يجثم على

المستشفى مثل خيمة من اللهب ، والمرضى يغطون فى النوم ، وقد تراخوا على الأسرة مثل شرائح اللـحم المسلوق وقد فقدوا القدرة على الحركة إلا هو فقد ظل يتقلب فى فراشه .

وما لبث أن قام ، وغادر الغرفـة ، ومشى طويلا فى الممر حتى بلغ الباب ، ومن الباب كان يرى خيمة الضابط النوبتجى ، وشاهد الديدبان يدور كالنحلـة فى الصحراء حول مـبنى المستشـفى وقد حمل بندقيته ..

وانتظر حتى اقترب منه الديدبان ثم قال له فى صوت خافت :

– شاويش عطية .. إدينى سيجارة .

– ممنوع .

– طيب عاوز أكلم حضرة الضابط .

– ممنوع .

– طيب عاوز أطلع أقعد شويـة على الباب .. أنا حاموت جوه ، نفسى حايتخنق .

ممنوع بقولك يا فندى .

– هو أنا حاهرب ياشاويش ، دنا جنبى مفتوح وعامل عملية .

– مش شغلى ، الأوامر كده .

وكـان وجه الشـاويش جامـداً وهو يتكلم عن الأوامر ، وكـان

التعب يبدو من تحت ملامحه الجامدة ، وعيناه تتألقان كجمرتين ملتهبتين .

كان الشاويش مريضا .

ومضى يترنح ليكمل داوريته ، بينما ظل السجين واقفاً يتأمل شبحه الطويل النحيل وهو يختفى عند المنحنى ، ويفكر فى الحر الذى يلسع ظهره كالكرباج .

وظل واقفاً فى مكانه مدة طويلة ، لا يدرى كم من الزمن ربما ساعة ، أو أكثر ، ثم أفاق أخيراً على صوت أقدام تقترب ، وشبح نفرين يحملان شيئا فى محفة ..

وحينما اقتربت الأشباح ، استطاع السجين أن يميز الشىء المحمول فى المحفة .

كان الشاويش عطية نفسه وهو يهذى من ضربة الشمس .

■ ■ ■

وفى المساء .. نزل السجين مرة أخرى ليقف أمام الباب ، وكان المنظر هو نفس منظر الصباح ، لم ينقص منه شىء ، إلا الشاويش عطية الذى مات ، والشمس التى غابت وحلت محلها ملاءة سوداء تلف الصحراء كلها .

وكان الديدبان الجديد شاويش عوضين ، يذرع الرمل أمام الباب وقد حمل بندقيته .

وفكر السجين لحظة .. ثم نادى بصوت خافت :

– شاويش عوضين .. إدينى سيجارة .

– ممنوع .

طيب عاوز أكلم حضرة الضابط .

– ممنوع .

– طيب عاوز أطلع أقعد شوية على الباب ، أنا حاموت جوه .

– ممنوع بقولك يا فندى ..

– هو أنا حاهرب ياشاويش دنا ..

– مش شغلى ، الأوامر كده .

ومضت لحظة أخرى خيل للسجين فيها أنه يرى الأشياء بالعكس ، حتى لقد بدأ يتساءل .. مَنْ يكون سجين هذه الأوامر ومَنْ الذى يذهب ضحيتها .. هو .. أم الشاويش .

لقد مات عطية .. أما هو فما زال حياً يتنفس ملء رئتيه ، وخيل إليه وهو يطل من القضبان أنه حر طليق فى غرفته ، وأنه يطل على شاويش غلبان مسجون فى الصحراء ، لا يدرى أحد متى تضربه الشمس هو الآخر فتقتله ..

مـادة الأحــلام

كـان ضمن أعـمالى فى ذلك اليـوم .. أن أقابل صـاحب فيـلا السلام ..

فيلا السلام ؟ نعم هى بعينها فيلا السلام !!

وقرأت الاسم مرتين وسرح خيالى .

وشعرت بسعادة لا حد لها .

إنه الحلم الذى ظللت عشـرين سنة أحلم به وقـد تحـقق ، أن أدخل ذلك القصر الرائع الذى كنت أدور حوله وأنا طفل ..

وعادت بى الذاكرة إلى تلك الأيام الخوالى وأنا صـغير ، أجرى فى الشارع ببطنلون شورت ، وقـميص مبهدل نصفـه محشو فى البنطلون ونصفـه مدلى على جـانبيه ، وحذاء ربـاطه مفكوك على

الدوام ، وفى يدى كراسات الحساب والعربى ، وكتاب الديانة ، ولفافة بها خبز وجبن هى غذائى طول اليوم .

وأنا أمر كل يوم فى طريق المدرسة وفى طريق البيت على هذا القصر العجيب ، فيلا السلام الذى كنت أتوقف عنده ، وأشب على سوره .. لأطل على الحديقة فى الداخل ..

وعاد إلى ذهنى إحساس الانبهار الذى كنت أشعر به كلما رفعت رأسى الصغيرة ورحت أتجول بها فى مشارف القصر .

السلم الرخامى الصاعد فى تؤدة وجمال كأنه صاعد إلى السماء ، والببغاء الأحمر الذى يقف فى قفصه عند المدخل ، ويتلفت إلى كل مَنْ يصعد ليصرخ في وجهه بنبرات واضحة ، أحبك ، والنافورة التى تخرج من فم أسد صغير من المرمر وسط الحديقة .

والأشجار العجيبة التى لا أعرف من أى مكان جمعها ذلك البستان الهرم ، أشجار الحور والزيزفون والليلك ، وعرائس اللبلاب والورد البلدى المخصب بحمرة دموية ، المتهدل على الأسوار ..

وما أكثر ما سرقت ورودا من هذه الورود البلدية ورشقتها على صدرى ورحت أشمها فى تلذذ .

وأشجار الليمون والجوافة والمانجو والموز ، والفسقية التى كان يقول عنها الأولاد إن فيها جنية تخرج بالليل لتخطف الأطفال.

والبرج الرشيق الجميل الذى يصعد ويصعد ويكاد يخرق السماء بقمته الرفيعة المدببة كسن الدبوس ، وعليها ذلك التمثال لديك منفوش له عرف أحمر ، يبدو وكأنه يؤذن .

وكان من عادتى أن أطيل النظر إلى ذلك الديك وكأنى أنتظر منه أن يصيح فعلا ويؤذن فعلا .

وكنت أسمى البيت ، البيت أبو ديك .

البيت أبو ديك .. !!؟ نعم هو نفسه .

ووضعت يدى على خدى وسرحت لأعود بكليتى إلى هذه الصورة من الشوق والحنين الغامض .

كنت أشتاق وأتحرق شوقاً كلما مررت بذلك البيت ، لأن أدخله، وأتسلل إلى غرفاته ، وأتفرج على أبهائه ، وأقف تحت تلك النجفة التى كنت أراها تتلألأ من الشارع ، وكأنها عنقود من النجوم .

وكنت أتمنى لو كنت صاحب ذلك القصر .

وهل أستطيع ؟

وهل يمكن أن أكون صاحب ذلك القصر .

لا بد أن صاحب هذا القصر هو الجن نفسه .

وكنت أحلم فى تلك الليالى الخوالى وأنا أغمض عينى أنى أدخل القصر ، وأنام على سرير من ذهب وآكل فى أطباق من فضة ، فهكذا يعيش ذلك الرجل صاحب ذلك القصر ، وهكذا ينام ويأكل .

ولا شك أنه يشرب كثيراً من العسل .

وكنت أحب العسل كثيراً فى تلك الأيام .

ويفطر بالجاتو ، وكنت أحب الجاتو كثيراً .

آه ، لكم تمنيت أن أفتح عينى فأجد نفسى صاحب هذا القصر ولكم درت حول أسواره ، ورشقت رأسى بين خصاصها ، وبقيت ساعات أتفرج ، على ما يجرى داخل هذا المكان الخرافى .

ولكم طفشت من المدسة ورابطت على باب هذه الجنة أراقب سدنتها وملائكتها ، وهم يروحون ويجيئون .

واليوم .. وبعد عشرين سنة ، وقد كبرت وأصبحت موظفا كبيراً فى الأقاف ، انتدب لمهمة ألتقى فيها بصاحب هذا القصر .

حقا ، إنها لسعادة ، سعادة لا توصف .

والحق أنى كنت سعيداً – سعادة لا توصف ، وأنا أعد الأوراق اللازمة ، وأجمع أطراف القضية التى أذهب بصددها .

كنت أشعر أنى ذاهب إلى طفولتى ، إلى أحلامى ، إلى موعد مع امرأة عشت طول حياتى أعشقها .

وكأن وتراً فى قلبى يرتجف وكأنى ما زلت طفلا ، وكأن هذه الشعرات البيض التى بدأت تزحف على رأسى ليست إلا وهما .

وفى الطريق كنت أستعيد طفولتى مع كل خطوة ، وكنت أتذكر مواطىء أفراحى وأحزانى ، وأرى مشاعرى مرسومة على كل منعطف .

من كان يصدق .. ؟ أنى سوف أدخل إلى البيت أبو ديك أنا لطفى عبد السميع الذى كان يأكل الجبن القريش والخبز ويحملق من خصاص هذا السور منذ عشرين سنة .

ما أسرع ما تتغير الدنيا .

وحينما دخلت من البوابة كان أول شىء نظرت إليه هو الببغاء.. وكان يبدو عجوزاً جدا ، ولم يكن ينطق كما كان ينطق زمان .

وكان السلم متربا والفسقية جافة .

وكانت الجدران باردة ..

وكان الخادم الذى صاحبنى إلى غرفة السيد صاحب القصر

لا يتكلم ، وكانت الممرات الطويلة الموحشة وهى تردد وقع خطواتنا تبدو مثلجة شديدة الرطوبة ..

وكنت أتلفت حولى فى خوف ورهبة ، وحينما دخلنا إلى حجرة السيد صاحب القصر وهى حجرة نوم ، لم يتحرك السيد من مكانه ، وظننت أنه يستعلى على موظف بسيط مثلى ، وخطر لى أن أثور لهذا السلوك ، ولكنى حنما اقتربت منه وجدت أنه مريض مشلول ، فى فراشه لا يتحرك .

وكان يكاد يتكلم ..

قال لى إن ابنه الوحيد الذى جئت لآخذ توقيعه مريض فى مستشفى الأمراض العقلية .

وبصم بأصبعه على الأوراق التى قدمتها له وقال لى بصبر نافذ ، وقد بدأ يسعل سعالا لا نهائياً .

هل تريد سيئاً آخر .

ولم أكن أريد أى شىء آخر .

وكانت النجفة الهائلة كعنقود النجوم تهتز فوق رأسى ، وكان لها تأثير آخر غير التأثير القديم ، كانت ترعبنى بصليل الكريستال الذى يخرج منها .

وحينما كنت أنزل على السلم الرخامى فى بطء وبقلب مثقل ، كان الخادم يقول لى إن السيد مشلول هكذا فى فراشه منذ ١٥ سنة ، وإن ابنه الوحيد قد ولد ضعيف العقل ثم اشتدت حالته حدة مع المراهقة ولم يعد هناك أمل فى شفائه .

- هل تتفضل قليلاً فى غرفة الاستقبال لتستريح وتشرب فنجاناً من القهوة .

- لا .. أشكرك ..

- لعلك لا تحب القهوة .. عندنا شاى جيد وجاتو .

- لا .. لا .. أشكرك .

- إن الجو بارد ، وغرفة الاستقبال مكيفة ، وتستطيع ..

- أشكرك لقد انتهت مهمتى ..

وحينما كنت أضع قدمى على الباب ، كنت أشعر أن هذا القصر الذى سكنته أوهامى عشرين عاماً يتبخر .

يتبخر تماماً ، كمادة الأحلام .

رسـالة من الجحيم

هل يمكن أن تكون البـراءة ذنبـاً ، والفـضيلة ورطـة ، والعفـة سقطة تستدعى الكفارة ، والندم .. أشد الندم .

إن أحكامنا تتـوقف على الزاوية التى ننظر منها إلى الأشـياء ، وإذا وقفنا على رءوسنا . فيمكـن أن نرى الأشياء مقلوبة ، ويكون هذا أمراً طبيعياً ، ومـع هذا فزوجتى لم تكن تقف على رأسها لكى ينقلب كل شـىء فى نظرها .

وأقدم لكم زوجتى أولاً ، السيدة فريدة علم الدين .

اسمها يدل على أنهـا من بيت قديم محافظ ، وهذا هو الواقع . الشعار إياه الذى يردده كل العرسان فى باب إعلانات زواج ، بنت طيبة من بيت قديم مـحافظ تقدر الحياة الزوجية مسـتعدة لفرش أربع غرف .

الشهادة لله إنها فرشت خمس غرف وصالة ، وإنها طيبة ، على الأقل على ما يظهر من سلوكها فى أيام التعارف الأولى .

ولكن الطيبة أيضاً أمر يختلف تفسيره عند كل طيب وطيبة . فيمكن أن تكون الطيبة هى الغفلة ويمكن أن تكون العبط ، وفى قول آخر إنها الكرم واليد السخية وقول ثالث إنها الدروشة وحج بيت الله والصلوات الخمس فى أوقاتها .

وفى قول رابع إنها التوكل وترك كل شىء للخلاق ، وفى رأى مودرن أنها المجاملة والتملق واستقبال كل الناس بالأحضان والقبلات ومسايرة الزمن . وفى رأى مودرن آخر هى الجد وقول الجد ..

المسألة إذن تختلف فيها وجهات النظر ..

الكلمة واحدة .. ولكن لها ألف معنى ..

ولهذا لن ينفع أن أقول لك إن السيدة فريدة علم الدين من بيت طيب وأنها طيبة . وإنما يجب أن أدخلك معى بيتها بيت الهنا الذى دخلته لترى ماذا فعلت بى طيبتها .

كانت أول كلمة قالتها لى :

ألا يكفيك أنك قد تزوجت بكراً .. والأبكار لا وجود لهن فى هذا الزمن ، أشهد أنها كانت بكراً بالفعل ، أما بقية الجملة فلا أستطيع

أن أجزم بصحتها فليست عندى إحصائية فيها عدد الأبكار من بنات هذا الزمن ، وإن كنت أشعر بالهشة من السؤال ، فهل مفروض أن أقبل الأرض وأرجع أمامها شاكراً حامداً لأنها بكر ، وهل هذا شأنها أم شأنى ؟

هل احتفظت ببكارتها احتراماً لجسمها وصيانة له ، أم أنها احتفظت بها كميدالية تقدمها عند الطلب وتتقاضى ثمنها ..

يبدوا أنها كانت لها وجهة نظر مختلفة جداً فى مسألة البكارة هذه . لأنها راحت تقاضينى ثمنها ، وكأنها ورطة وقعت فيها وذنب يستدعى منها أشد الندم ، فقد فعلت هذا من أجلى ، ولهذا أنا لا أستحق النعمة ، يالها من غلطة .

لأعوضها إذن عن هذا التلف ، أقصد عن هذه العفة أقصد عن هذه الطهارة .

كل يوم مر فى حياتها أبيض بلا ماض تطالبنى بجريرته .

وكل خيانة تسمع أن النساء يرتكبنها ولا تفعلها تنقلب نكداً على رأسى ، فهى شريفة بين نساء كلهن كلاب ، وهى عفيفة بين زوجات كلهن قذرات ، حاضر على عينى ورأسى ، ماهو المفروض أن أفعله .

أى شىء لا ولن يرضيها .

لا بد أن أطفح الدم ، شـجاراً ونقاراً كل ليلة انتـقامـا منى لهذا الشىء الذى لم تفعله ..

وأنا رجل لى عمل .

وهى لا تفهم كيف يمكن أن يكون للزوج عمل غير زوجته .

أقـول لها كل يـوم إنى مهندس مـسـئول ، وإنـى أقوم بعـمل جسيم، هو تخطيط مدينة ، وهو عمل يحتاج إلى كل أعصابى .

أى مدينة .. !!

وهل توجد مديـنة سواها هى وسوى حبهـا ، أدور فى فلكها ، هى التى ادخـــرت كل شـبـابـهـا من أجلى ، لم تنـظر إلى رجل . ولم تعط نفسها لإنسان .. ولم .. ولم .. ولم .. واحـتفظت بنفسها بكراً (أشهـد وأبصم بالعشـرة أنها كانت بكراً .. ولـكن هل معنى ذلك أن أقتل نفسى) .

تغار من نجـاحى وتتمنى أن أفـشل ولا يعود لى عـمل سواها ولا يهم بعد هذا أن نجـوع ونتعـرى مادمنا معـا ياحبيبى ، كذب طبعـاً فأنا أعلم أنها أحبـتنى لنجاحى ، وأنى لو أصبـحت الفاشل الخـائب الذى يتبـعـها كظلهـا لما وجـدت فى الشىء الذى تحبـه ، ولأصبحت موضوعاً منتهياً ، هو الموضوع الذى قتل بحثاً ولم يعد فيه شىء يثير .

تحبنى وتتمنى أن تكرهنى ، تتمنى لو ضبطتنى متلبساً بفعل شنيع يسقطنى من عينها لتستريح وتقول لكل واحد . انظر ماذا فعلت من أجله وماذا فعل الكلب ، أنا التى حافظت على نفسى لم يمسنى بشر ولم ينلنى إنسان .. ولم .. ولم .. ولم .. تقول هذا لا لتقنعه ولكن لتبرر لنفسها مستقبلا بهيجاً خالياً من الموانع تنوى عليه فى ضميرها .. فما دام الرجال كلهم كلاب .. ورجلها أكثرهم نباحاً .. فيالها من غطلة لا يجب أن تتكرر تلك العفة ، تلك الورطة التى تورطت فيها ..

تقول لى كل يوم ، لقد تغيرت ، حبك تغير ..

طبعاً حبى تغير إلى أحسن .

كان حبى قبلات وضمات فأصبح حبى هو أن أمنحها عمرى كله ووقتى وراحتى من أجل أن نبنى معاً حياة أعظم لنا وللناس .

كلام فارغ ، فين أيام شهر العسل . كنت مشغوفاً بى كل لحظة، لا أفكار فى ذهنك سوى أين نسهر هذا المساء .

يا ست حب شهر العسل هو الحب الصغير ، كان كل منا يحاول أن يعطى للآخر ، أما الآن فنحن يحب بعضنا بعضاً الحب الكبير ، نحاول أن نعطى حبنا للدنيا وللمجتمع ، أنت تعطينه طفلاً، وأنا أخطط مدينة .

كلام فارغ .. مجتمع إيه .. وبتاع إيه .. أنت لم تعد تحبنى .. دائما سرحان تفكر .. لا بد أنك مشغول بامرأة أخرى ، وهذه قسمتى وهذا نصيبى المهبب ، أنا التى حافظت على نفسى لم يمسسنى بشر ، ولم يقربنى رجل .. ولم .. ولم .. ولم .. ولم.. وأخذتنى بكراً .. خسارة فيك وفى عينيك ..

انصرافى إلى عملى لا يبعث فيها إعجاباً أو احتراماً ، وإنما يبعث فيها الغيظ والغل والحقد ، تقتحم على لوحاتى وتنظر إليها كأنها عشيقة أو ضرة لو استطاعت لفتحت رأسى لتفتش فيها ، ولحجرت على أفكارى .

تقول لى إنها تحبنى ولكنها فى الواقع تحب نفسها ، فكل ما تعطينى من نفسها تندم عليه وتحاسبنى عليه وتقاضينى عليه، حتى ماضيها الذى لم أكن شاهداً فيه تطلب منى تعويضاً كاملا عن ما فيه من عفة وفضيلة .

الحب عندها هو أن أكون فى كل لحظة مبذولا من أجلها مكرساً من أجل ملاطفتها ومجالستها..

يبلغ بى العذاب أحيانا للدرجة التى أتمنى فيها لو كنت تزوجتها راقصة بشلن فى شارع محمد على وقد مرت على ألف رجل ورجل . لتتركنى لراحتى وحريتى . ربما لو كانت أخطأت لكانت أصبحت أكثر فهماً .

وفى لحظات اليأس التام والاختناق حينما أشعر بأنها تجثم بمطالبها على مخى . وحينما تصبح المشكلة هى حرية أو لا حرية .

ساعتها أطلب الحرية بأى ثمن بالطلاق .. بالفراق .. بالموت .. أنجو بجلدى ولو بسلخ جلدى .. فلا سعادة أصيلة بدون حرية وملعون أبو البكارة اللى بالشكل ده .. فماذا يعنى كونها زوجة بلا ماض ، إن ما تفعله وليس الشىء الذى لم تفعله هو القضية ..

إن ما نفعله هو المهم .

وليس ما لم نفعله .

إن ما نفعله هو حقيقتنا .. هو شخصيتنا . هو مساهمتنا التى نكافأ عليها . أما أن نتفاخر لأن شيئا ما لم نفعله فهى نكتة .

والغيرة يا سادة .

الغيرة العمياء التى تتلمس الأسباب فى دقة تليفون أو نظرة شباك أو خطاب أو شعرة مجهولة النسب على الجاكتة أو تذكرتين سينما منسيتين فى الجيب الجوانى (وهما تذكرتان نكون قد ذهبنا بهما أنا وهى والله العظيم) .

هذه الغيرة ليست دليل حب ، وإنما ذريعة تسلط وتحكم ووسيلة للضغط والقهر ، وإحكام الإقفال والترابيس حول القلب والمخ وخيط من حرير يلتف حول الرقبة حتى يخنقها ، وحتى

تبلغ الروح الحلقوم ، وحتى أهتف أنا المتهم الغلبـان مقسماً بأغلظ الأيمان إنى أحبها ، والله العظيم أحـبها وحدها فقط ، لم ولن أنظر إلى غيرها ، فى أى يوم .. وفى أى بلد .. وفى أى قطر ..

ولكن لا ضمان ، مَنْ يؤكد لها أن كلامى هو الصدق ؟

الغباء الشديد يريد أن يتأكد .

وأنا لا أستطيع أن أقـدم ضمانا أكـثر من القسم وأكـثر من أن أبكى وأتشنج وأحلـف على نفســى بالعمــى وعلى أهلى بالموت إذا كنت كاذباً .

ولكن الغباء الشديد يريد أن يتأكد .

مَنْ يضمن لـها أنى لم أكذب فى جـميع هذه الأقســام المغلظة ، وماذا أستطيع أن أفعل أكثر من هذا .

أنتحر لأقدم الدليل .. ؟!

أشنق نفسى ؟

وبعد المحاكمة الرهيبة يعود الغباء ليتكلم .

- أنت لم تعد تحبنى كما كنت تحبنى الأول .

- وأى دليل أقدمـه على حبى أكـثر مما أفعـل كل يوم . أشقى

وأتعب ، وأهلك وأضع بين يديك ثمار تعبى .

– أنا لا تهمنى الفلوس (كذابة فهى تعتم جداً بالفلوس ولم تتزوجنى إلا بعد أن اطمأنت إلى إيرادى) .

– إنها ليست الفلوس إنها العمر وشقاء العمر وكد الذهن وعرق الجبين الليالى الطوال وسهاد السنين أسلمه لك راضياً مرضياً هل يفعل هذا زوج يحب أم زوج يكره ألست عندك ذرة عقل .

لا عقل .. لا ذرة عقل ..

وإنما غيرة حمقاء وأنانية تعمى الرؤية ورغبة فى الامتلاك والتحكم والتسلط باسم الحب ، الحب الغلبان المسكين المفترى عليه .

احترت كيف أفتدى حريتى ..

حاولت أن أفتدى نفسى برقبتى بفلوسى .. بالجنون .. بالتشنجات بدون أمل ..

ولكننى حر .. وحريتى زادى وقوتى ..

– وأنا أجمل امرأة فى مصر .

– الجمال ليس تقاطيع .. الجمال سجايا وخلق وسماحة .. وأنت لا تكشفين لى إلا الوجه القبيح من وجودك .

- أنت لا تشعر بأنوثتي ولا ترى فتنتي ، إني أوقف المرور في أشد الشوارع ازدحاما ، ولا أعود مرة إلا وعربة تطاردني من يميني وعربة من شمالي ..

- أنا أنظر إليك على أنك زوجة لا على أنك صيدة .

- أنا أنجبت لك أسرة وجعلتك أبا ، بعد أن كنت صعلوكا ..

- أسرة ستتربى في جو من الجنون وستكون ضحيتك لا هديتك .

- أنا نظفتك ولبستك وجعلتك بني آدم .

- أنا لن أكون آدميا إلا لحظة أفارقك ، لحظتها سوف أسترد حريتي واحترامي لنفسي ، وأعود إنساناً أنا طهقت .. طهقت ..

هذه هي حكاية السيدة فريدة علم الدين .. زوجتي .. سليلة البيت المحافظ .. ربة الصون والعفاف التي بلا ماضي ..

وبلا مستقبل أيضاً .

درس فى الخشونة

كانت خيمتنا منصوبة فى العراء .. وكانت هذه أول تجربة لى أخرج فى رحلة من هذا النوع ، أحمل على ظهرى زمزمية وأنام على سرير سفرى من الخيش وأمشى فى وهج الظهيرة فى الرمل وفى التراب ، وأتناول غذائى من التمر والخبز الجاف وعلب السردين بدون الماء المثلج وزجاجات الصودا ، وبدون فنجان شاى فى الهيلتون ، وبدون الاسترخاء السعيد بعد الحمام الساخن فى البيت .

كان الاسترخاء هذه المرة على أرض مغطاه بالشوك مرصعة بالحصى ، والماء الوحيد الممكن الحصول عليه هو ماء مالح من بئر اردوازية ، والقميص الوحيد الذى ألبسه قميص تيل كاكى ، أين هذا القميص من قمصان النايلون والأرلون التى ألبسها فى

القاهـرة ، الله يجـازى الشـيطان .

والشيطـان هنا هو صاحبـى الذى زين لى هذه الحمـاقة وظل يغرينى بهـا حتى اقتنعت ، اقتنعت بأنى بأنـى رجل رخو أمارس حيـاة بليدة مرهفة لا تخـتلف عن حياة النسـاء المترفات ، عيـشة نواعمى ، تنقصها الخشونة والرجولة .

وكنت أنظر إلى صـاحـبى هذا وهو جـالس على باب الخـيمـة يأكل، وأراقـبه وهو يلـتقط التـين ويأكله بتـرابه وطينه فـأشعـر بالاشمـئزاز من هذه القذارة الـتى يسميـها خشـونة ، وأحاول أن ألفت نظره إلى الميكروبات التى يبتلعها بالملايين مع كل قضمة من هذا التين أو الطين فيرد على وهو يبتسم ..

– وما له الطين ؟ .. الـنبات عايش على الطين .. والـورد بيفطر ويتغذى ويتـعشى طين .. الحصان الرشيق الجمـيل القوى بياكل الحـشيش بطينـه . الطيور وجـبتـهـا الرئيسـيـة الرمل والطين ، الحيوانات دى بتعمل إيه فى ملايين الميكروبات اللى بتبلعها .

فأقول له فى غباء ..

– بتعمل إيه ؟

– فيه فـى معدتها أحـماض تدوب الميكروبات وتتغذى عليـها .

الحيـاة لها ألف حيلة .. المعـقمين المحنطين اللـى زيك اللى بياكلوا مطهرات وبرمنجنات بيـعطلوا حافز الحياة فى أجـسامهم وتكون النتـيـجة إنهم يمـرضـوا ويفـقدوا القـدرة على الكفـاح ، اسـمع نصيحتى ، وكل طين .. أنا جايبك النهارده علشان تأكل طين ..

الله يجازى الشيطان .

وأكلت التين أو الطين .

ورأيته ينزع الخيمة ويخـرج المعدات ويحمل المؤونة على ظهره ويذهب إلى العربيـة الجيب ، فاسـتـبشـرت خيـراً بأننا عائدان إلى القاهرة فى النهاية بعد هذا اليوم القاسى فى هجير يوليو ، ولكنى رأيتـه يدير عـجلة القـيـادة إلى اتجـاه آخر ويـدوس على البنزين لينطلق بالعربة فى طريق طويل متعرج ، وبعد ساعة كنا ندخل فى طريق صحراوى ، ونترك الوادى بألوانه الخضراء وراء ظهرنا ..

– إنت رايح بينا فين ..

– إحنا طالعين على الواحات .

– واحـات إيه ياراجل يامجنـون ، فيـه حد يروح الواحـات فى الحر ده .

وتشـبثت بيـده أحـاول أن أثنيه ولكنه كـان يزداد عنادا كلمـا

حاولت مقاومته ، واستسلمت فى بؤس وأنا أعزى نفسى بأنى أكتسب خشونة ، وأنبه حافز الحياة .. إلخ .. إلخ .. ولكنى كنت غير مقتنع بحكاية حافز الحياة هذه .. لأنى قلت بعد لحظات :

- نفرض دلوقت أن العربية غرزت بينا فى الرملة الناعمة دى نعمل إيه ؟

- ما هى لازم تغرز ، وإيه الفرق بيننا وبين التلاميذ اللى طالعين فى رحلة مدرسية إذا كانت العربية مش حا تغرز .

ومنين حاتتربى فيك روح المغامرة ، إذا كنت حاتروح الواحات وترجع زى ما بتروح النادى كل يوم نبقى عملنا إيه .

وكانت الشمس عمودية ، والرمال من حولنا تمج اللهب ، والطريق أمامنا وخلفنا يبدو خالياً تماماً من أى مخلوق ، والصحراء المترامية على الجانبين ليس فيها شجرة أو حيوان أو خيمة أو أثر حياة ، بيداء جرداء تشويها الشمس ، وكان صاحبى يتكلم عن حافز الحياة ، وأنا لا أرى أمامى ذرة حياة .. حلقى جاف ولا أجد القوة لأرد عليه ..

- الحياة مش فى الراحة والأمان ، ياما حاتشبع راحة لما حاتموت ، ساعتها حاترقد على جنبك ما تغيروش بدل السنة ألف

سنة ، منتهى الاستقرار ، الحياة مش راحة ، الحياة تعب وأخطار ومغامرة ومجازفة .

كلام معقول ، لكن الحر أقوى من أى معقول ، والصداع الذى يدق فى رأسى ، والعرق والوهج الذى يعمى العين ، وأجفانى التى بدأت تثقل ، كل هذا كان يجعلنى لا أفهم شيئاً ، وألعن اليوم الذى سلمت فيه قيادى لهذا المجنون ..مغامرة إيه .. وأخطاء إيه ، أنا كان مالى ومال الشقا ، وأنا حاستفيد إيه من الخشونة دى ..

وكنت أشعر بالندم لهذه الفطنة التى جاءت بعد أوانها .. فلم يعد هناك حل ، المسافة بيننا وبين القاهرة التى خلفناها وراءنا طالت وأصبح طريق العودة يكلفنا جهداً أكثر .

مفيش حل .. أمرى لله .

وكانت قد مضت عشرون ساعة منذ تركنا القاهرة خلفنا فى أسفار متواصلة .

وكنت أستعرض فى ذهنى كل قصص الرحالة الذين تاهوا فى الصحراء وماتوا من العطش ، وأكلتهم الذئاب ، وأتخيل هذه النهاية التعسة .

مَنْ يدرينى بأن صاحبى يسير فى الطريق الصحيح ، وإنه لم

يضل ، والطريق المتعرج الذى لا ينتهى يؤكد لى هذه الظنون .

ولا أثر لكشك مـرور على الأفق .. أو إشارة .. أو عـلامة .. أو سهم يشير إلى أى مكان على الأرض ..

لا يمكن أن يكون هذا الطريق المهجور مؤدياً إلى شىء . !

وإذا انسـدل علينا الظلام ونحن نـخبط فى هذا الخـواء ، مـاذا نفـعل ، ننام فى السـيارة ، وإذا طالت الرحلـة دون أن نعثـر على راحة أو نبع ماء ؟ .

وإذا انتهت المؤنة وفرغ الزاد .

وإذا انفـجرت إطارات العـربة ، وهى لابد منجـرة إذا اسـتمـر سيرنا بهذه السرعة على هذا الرمل الملتهب ساعة أخرى .

وأدرت بصـرى فى الجهـات الأربع باحثـاً عن معـالم المدينة . لا شىء حتى ولا عمود تلغراف ، خواء تام ، وعزلة كاملة .

لو حـدث لـنا شىء فى تلك اللحـظة علينا العـوض .. وبنظرة واحدة إلى تمـويننا من الطعام والشـراب ، أيقنت من الكارثة ، إنه يكاد يكفينا يومين مع الاقتصاد الشديد وبعد هذا ..

نربط الأحزمة على بطوننا ، ونموت ببطء .

وطار عقلى شعاعاً ..

وفكرت أن أكاشف صاحبى بهذه الظنون ولكنى آثرت الصمت حشية أن تكون الظنون فى محلها ، فأفقد البقية الباقية من شجاعتى .

ولاحظت أن العربة بدأت تبطىء فى سيرها فحمدت لصاحبى حسن تصرفه فهو لا شك يخفض من سرعة السيارة حتى لا ينفجر الكاوتش فى هذا الحر القاتل ..

ولكن العربة أبطأت أكثر وأكثر ثم وقفت تماماً .

واستدار صاحبى ليواجهنى وكان وجهه شاحباً بلون الشمع ، وقال بصوت لاهث ..

– البنزين خلص ..

وظننت فى البداية أنه يمزح ، ولكن وجهه الذى غاض منه الدم، وأطرافه المثلجة ، ونبراته المتهدجة ، أكدت لى أن الكارثة حقيقية وليست مزاحا .

بنزين السيارة نفذ ..

معنى هذا أننا باقون فى مكاننا إلى ما شاء الله ، رهن القدر

ورهن الصدفة التى تسوق لنا مَنْ ينقذنا .

وسـقط قلبى فى ضلـوعى ولكنى تمالـكت نفسـى وقلت فى غضب :

– وازاى البنزين يخلص ، وكنت فين طول الوقت ؟

– كنت عـامل حسابى إن إحنـا حانوصل بلدة أم كـمام ، ومن هناك نملأ بنزيـن زى ما إحنـا عاوزيـن ونسـتأنف رحـلتنا ، لكن الطريق اللى خدته طلع بيه على سكة تانية غير سكة أم كمام .

– وبعدين ..

– ولا قبلين .. ننتظر الفرج ..

قصدك ننتظر الموت ..

وكان قد أشعل سيجارة وعاد إلى لماضته المعهودة .

– الموت عـمره مـا ييجى فى المناسـبـات اللى زى دى ، أبويا اشتـرك فى حرب فلسطين وحـرب القنال وقاد كتـيبة فـدائية فى بورسعيد ، وحارب مع الصاعقـة ، والآخر مات فى البانيو غرقان فى شبر ميه .. بدون حرب وبدون ضرب ..

وكـان يدخن فى هدوء وبلا مـبـالاة ، فـشـعـرت بالخـجل ..

وضغطت على أعصابى حتى لا أبدو ضعيفا ، وأشعلت سيجارة ومضيت أدخن فى صمت وكأنى نسيت الموضوع تماماً ، والحقيقة أنه لم يكن لى شاغل طوال هذا الوقت سوى التفكير فى الموت ، وفى حلقى وهو جاف كعود الحطب وبطنى وهى خاوية تعض على الهواء ، وجثتى وهى ملقاة فى العربة تحوم حولها الطيور الجارحة .

أعوذ بالله ..

وأمسح على جبهتى ..

هل أنا فى حلم ، هل أنا فى كابوس ، أم أننا ضائعان فعلا بين الأرض والسماء ؟

وأتفلت حولى ، وأحسب فى ذهنى الطريق التى قطعناها ، والمدة التى يمكن أن أستغرقها لو قطعت هذا الطريق عائدا على قدمى ، والمؤونة ، وأخطار السير فى العراء ، ثلاثة أيام .. أربعة أيام .. وعلينا أن نحمل الخيام لنبيت فيها .. غير ممكن .. إنه يكون جنوناً فالماء لا يكفى ، والسير فى مثل هذا الحر القاتل فى هذه الصحراء التى ليست بها بقعة ظل - انتحار ، وسوف نقطع الكيلومتر فى يوم ، ولا فائدة .. لا يوجد حل سوى انتظار المعجزة .

وقرأت الشهادتين وأغمضت عينى ، ثم فتحتهما على صوت صديقى يتحدث مرة أخرى فى لماضة ..

– إيه رأيك فى التجربة الجميلة دى .. أراهنك أنك حاتعيش كل عمرك تحكى عنها ، وتقول .. يوم ما واجهنا الموت ، وشفنا الأهوال ، وكافحنا الجوع والعطش ، هى دى الخشونة اللى حاتربى فيك العزم والاحتمال ، وحاتعمل منك راجل تانى غير الراجل الطرى بتاع زمان ، وآدى رهان إن ماكنت حارتجع تقولى بالله بينا نسافر تانى .

مفيش ألذ من حياة الأخطار ..

وكنت مازلت أهدهد أملاً عزيزاً بأن صاحبى يمزح ، أخطار إيه.. هو فيه حد عاقل يروح النار برجليه مش معقول ..

واتلفت حولى فى العربة باحثاً عن صفيحة بنزين أو تنك يخفيه صاحبى عن عينى ليدخل فى روعى أننا مشرفان على الهلاك ، أبداً .. لا يوجد أثر بنزين .. ولا رائحة بنزين ومؤشر الوقود فى العداد ينام على الصفر ..

وقمت بنفسى أفتش العربة وأفحص الخزان ..

لا توجد فيه نقطة واحدة ..

إن المسألة ليست نكتة ..

إننا معزولان وسط الصحراء على بعد ألف وستمائة كيلو متر من القاهرة بلا مواصلة وبلا تموين ، على طريق مهجور لا يطرقه إنسان أو حيوان ، ومصيرنا الهلاك ..

وتكومت على الرمل فى ظل العربة ووضعت رأسى بين كفى ، وكانت الشمس تنحدر نحو الأفق الغربى ، وحرارتها تفتر شيئاً فشيئاً .. وتوهجها ينطفىء قليلاً ، ومع كل انطفاءة من هذا النور كان الأمل ينطفىء فى نفسى ، لا فائدة .. الظلام يزحف ..

الظلام الذى يبتلع فى جوفه كل الرؤى وكل الآمال ..

وكان الرجل الخشن جالساً فى السيارة يدخن بلا مبالاة .. والشمس تهبط رويداً رويداً ، وقلبى يهبط معها فى ضلوعى .. وخطر لى أن أصرخ بأعلى صوتى ..

ونزل صاحبى من السيارة وجلس إلى جوارى .

ونظرت فى وجهه أبحث عن الخوف والرعب ، كان يبدو متماسكاً وإن كانت أصابعه تقبض على السيجارة بعصبية ، وقلت له وأنا أشير إلى الشمس التى تغرب .

– حاتعمل إيه فى الليل اللى جاى علينا .

- ولا حاجة حاناخد تعسيلة ونريح دماغنا .

- تعسيلة إزاى .. ولو طلع علينا ديب واحنا نايمين ..

- الديب ده أمره سهل ، ياريت كل مشكلتنا هى الديب وأخرج من جيبه علبه ثقاب وأشعل منها عوداً .

- آدى حكاية الديب ، تولع فى وشه عود كبريت يجرى زى القطة ، مفيش حاجة تخوف الديب قد النار ..

- طيب والثعبان ، لو لدغنا ثعبان .

- ولا يكون عندك فكرة ، أنا معايا مصل ثعبان وعقرب فى شنطة الإسعاف .

وشعرت بالاطمئنان لأنى مع رجل يعرف كيف يتصرف فى كل مشكلة وسلمت أمرى لله .

وانحدرت الشمس خلف الأفق ، واصطبغ كل شىء بلون رمادي، وسرت فى جسدى رجفة ، ولم أستطع أن أكتم القلق الذى ساورنى .

- واحنا حانقعد كده مستنين لحد إمتى ، ومعقول حد حايعدى فى الطريق المخروب ده .

وأجاب صاحبى فى هدوء ..

- أمال الأسفلت ده معمول علشان إيه ..

وأشار إلى آثار كاوتش عريض إلى جوارنا ..

- آمال العربية دى إيه ؟ ده طريق عمومى .. كل ساعة بتمر بيه عربية ..

وسرى فى الشعور بالاطمئنان والهدوء ، ورأيت نفسى أصفر بفمى ، وكأنى فى شارع الكورنيش .

ونزل الظلام .. وشعرت بالائتناس بصوتى وأنا أصفر .. وشيئاً فشيئاً بدأت ألاحظ أن هناك صوتا آخر غير الصفير الذى أحدثه بفمى .

وأرهفت السمع . كان هناك عواء ذئب . عواء مخنوق مسعور .

وحدث كل شىء بعد هذا بسرعة لم تدع لى فرصة للتفكير ..

طوقت العربة قافلة من الأشباح كأنها انشقت عنها الأرض .. قافلة من الذئاب .. تنبح .. وتلهث .. وتعوى ..

وغطس صاحبى تحت العربة من الذعر .. وقد نسى حكاية عود الثقاب الذى يخيف الذئاب ويحولها إلى قطط ..

وحينما التصقت بهيكل العربة لأواجه هذه الوحوش الشرسة فوجئت بأنى أمام عدد من الكلاب الأليفة تتشمم ثيابى وتلعقها .. وكان يقف وراءها أعرابى .

ولم يكن بينها ذئب واحد .

وناديت على صاحبى فى فرحة .

ولكنى لم أسمع جواباً .

واقتضانا الأمر مجهوداً شاقاً ، أنا والأعرابى حتى نجره من تحت العربة وكان مغمى عليه .

وحينما أفاق كان يهذى من الرعب ..

■ ■ ■

وكنا وش الفجر حينما استطعنا أن نمون العربة بالنزين وتعود أدراجنا فى طريق القاهرة .

وكان أسعد جزء فى هذه الرحلة هو طريق العودة ، وأنا جالس أمام عجلة القيادة أقود الساعات الطويلة ، وأبتسم من وقت لآخر لنفسى وأنا أنظر بجانب عينى إلى صاحبى الذى جلس صامتاً كالصنم لا يتكلم عن الخشونة ، ولا عن حافز الحياة ، ولا عن

فلسفة الموت والأخطار ، ولا عن الناس الذين يعيشون حياة رخوة طرية كحياة النساء المترفات .

ومع هذا فقد كان ثمة اعتراف اعترفته بيني وبين نفسي لوجه الحقيقة ، فما أكثر ما غيرتني هذه الرحلة ، وهذه النصائح التى سمعتها من مدرسي الفاشل ..

والبرغم من كل شيء .. ما ألذ حياة الأخطار ..

الجمعة
٢٥ يوليو ٢٠١٠م
الرياض
٢٫٢٠م
اهداء الى
كل زوار مكتبتي

الفهـــرس

الصفحة